



حَدِيثٌ فِي الشُّنَاءِ الْمَاضِي

محمود فقهي



حدث في الشتاء الماضي

محمود فهمي

تصميم الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: محمد حمدي أبو السعود

رقم الإيداع: ٢٠١٧ / ١٦١٠٥

الترقيم الدولي: ٢ - ٠١٢ - ٨٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة



للنشر والتوزيع

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر

هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦

rewaq2011@gmail.com

[facebook.com/RewaQ.Publishing](https://www.facebook.com/RewaQ.Publishing)

إهداء

إلى أمي

وإلى الأصدقاء

محمد أبوزيد

محمد الفخراي

الطاهر شرقاوي

هاني عبد المرید

سيد ضيف الله

لست جريجور سامسا

استيقظت من النوم كالعادة على صوت المنبه، فلم أجد أنني قد تحولت إلى حشرة هائلة في الفراش كما حدث لجريجور سامسا، وهذا ما أحبطني، فقبل أن أنام كنت قد أعددت نفسي لقضاء أيام غير عادية في جسد كائن آخر، ولكن هذا لم يحدث للأسف.

وضعت فنجان القهوة الفارغ ثم طويت طرف الصفحة التي كنت قد توقفت عندها، ووضعت الكتاب إلى جوارى فوق الكومودينو الذي تعلوه الأتربة.

كل شيء هنا تعلوه الأتربة منذ أن ماتت السيدة التي كانت تأتي كل أسبوع لتنظيف البيت، كانت تأتي صامتة وتذهب صامتة، لا يدور بيننا أي حديث حتى إنني كنت في الأيام الأخيرة قد نسيت اسمها، فقط حين تنتهي من عملها تسألني ما إذا كنت أريد شيئاً آخر، أكتفي فقط بهز رأسي نافيًا، تغلق الباب خلفها بينما أنفث دخان سيجارتي في طريقى إلى النافذة.

تغيبت لفترة طويلة ثم عادت، دق جرس الباب ذات صباح فقممت لأفتحه، وجدتها أمامي، كانت ترتدي جلبابًا أسود وتضع طرحة سوداء فوق رأسها، رأيت في عينيها نظرة حزن، فسألتها عن سر تغيبها، خرج صوتها مختنقًا بالدموع، قالت إن ابنتها الوحيدة ماتت بينما كانت تلد حفيدها، الذي خرج إلى الدنيا بلا أم، كان شيء ما قد انكسر بداخلها، طلبت منها ألا تعمل في ذلك اليوم وأن تجلس لتستريح، فرفضت،

قالت: يا بيه أديني باشغل نفسي لغاية ما اروحلها.

حملت الفنجان الفارغ ووضعتة في الحوض، رأيته هناك، صرصور صغير غاب بسرعة في فتحة الحوض، تأكدت من إحكام إغلاق محبس الغاز، فأنا لدي هاجس لا يغادرني، أنني سأموت مختنقًا برائحة الغاز، لهذا أحرص على التأكد من إغلاقه قبل الذهاب إلى النوم.

كثيرًا ما استيقظت من النوم مفزوعًا، أجري مسرعًا إلى المطبخ للتأكد من إغلاق المحبس لظني أنني قد نسيتته مفتوحًا، أظل منحنيًا مرتكزا بكلتا يدي فوق ساقي ألّهث، أظل هكذا إلى أن أستعيد أنفاسي، أفتح حاملة الأطباق التي تعلق الحوض، أتناول كوبًا أملاه بالماء وأقف مرتكزًا بيدي الأخرى إلى الحوض، وأرتشف الماء على دفعات متقطعة، أبلل كفي بالماء وأمررها فوق وجهي، أغلق النور وأعود إلى النوم.

توقفت في القراءة أمس عند الفقرة التي يقول فيها كافكا:

«ولم تكن الأم قد اعتادت مظهر جريجور الذي كان ليصيبها بالمرض، فأسرع جريجور مهرولاً إلى الخلف حتى نهاية الطرف الآخر من الأريكة»

أنا لا أخشى مصير جريجور سامسا، فليس لدي أبوان أخشى أن أخيفهما، أو أن أسبب لهما المتاعب، فأنا أعيش بمفردي منذ أن توفي والدي قبل سنوات وتبعته أُمي بعد شهور قليلة، ثم تزوجت أختي وسافرت مع زوجها إلى مدينة أخرى، قليلاً ما نتزاور، وتتصل هي بي على فترات متباعدة، مكالمات قصيرة بذات العبارات التي تكررهما في كل مرة عن الصحة والأحوال، وأكرر أنا أيضاً ذات العبارات في كل مرة بالسؤال عن زوجها وأولادها الصغار.

نعم لا أخشى مصير جريجور سامسا، لكنني لا أريد أن أتحوّل مثله إلى حشرة كبيرة، أريد فقط أن أصير مثل الصرصور الصغير الذي رأيته يختفي في فتحة الحوض منذ قليل.

لن يلحظ أحد غيابي، فعلاقتي بالجيران تقتصر على تبادل تحيات مقتضبة أمام باب المصعد، أو عندما يمر أحدهم بجواري فوق الدرج لو تعطل المصعد.

لا يدق أحدهم باب بيتي، فقط في اليوم الثالث من كل شهر بعد الغروب بقليل يدق جرس الباب، أعرف أنه أحد أبناء صاحبة العقار قد أرسلته أمه لتحصيل إيجار الشقة، أقوم من جلستي أمام مسلسل أنظّاهر أنني أتابعه لكنني لا أتابع إلا صورًا تتحرك أمامي فوق الشاشة، لا أتذكر أي كلمة من التي يتبادلونها فيما بينهم، أفتح الباب أراه أمامي يلقي عليّ

التحية فأردها بكلمات مقتضبة، يمد يده بالإيصال آخذه منه وأدخل لأعود إليه بالنقود يتناولها مني ويصعد الدرج، أغلق الباب وأعود لمتابعة تترات الحلقة التي انتهت.

سيكون بإمكانني ساعتها أن أخرج إلى المنور، الذي تطل عليه شبابيك المطبخ، سوف أتسلق مواسير الصرف، أقف بطرف نافذة جارتني التي تسكن في الشقة المقابلة، الجارة التي دائماً تغني في المطبخ، وهي ترتدي ملابس شفافة تكشف جسدها الذي يضح بأنوثته.

كنت أحيانا ما أرى زوجها وهو عائد من العمل، يمشي فوق أطراف أصابعه ثم يحتضنها من الخلف، يطوق خصرها بذراعيه ويمرر شفتيه ببطء فوق رقبتها، عندما أتحول إلى صرصور صغير، ربما أدخل إلى المطبخ وأختبئ في أحد أدراجته، سوف أتمكن من مكاني هذا من الاستماع إلى الكلمات التي يهمس بها إليها، والتي لم يكن بإمكانني أن أسمعها، وأنا أفتح باب الثلاجة وأتناول زجاجة ماء أرفعها إلى فمي، بينما بطرف عيني أراه يدخل متسللاً، يقبض بكلتا كفيه خصرها فتطلق ضحكة ترتج لها جدران روحي.

سوف أتمكن أن ألاحظ على مهل حمالة قميص نومها وهي تنسدل برفق فوق كتفها المستدير، وأصابعها النحيلة وهي تعاود رفعها مرة أخرى، سألاحظ خيط العرق الذي يسيل فوق رقبتها الطويلة ببطء حتى يغيب في النهر الذي بين ثدييها الطريين.

سوف أتمكن وأنا أتحرك في هذا الحيز الضيق المظلم من أن أستمع لغنائها، دون أن تتوقف مثلما كانت تفعل عندما تفاجأ بوقوفي في الشباك المقابل، فترمقني بنظرة غاضبة، وتسرع بإغلاق شباك مطبخها وهي تنفخ هواء ساخناً من بين شفتيها، آه من شفتيها هاتين، كثيراً ما تمنيت أن أمرر إصبعي فوق شفتها السفلى قبل أن أقرب فمي وألتقمها بين شفتي.

فتحت عيني على رنين الهاتف، نظرت إلى جسدي، ما زال كما هو، كان زميلي في العمل على الجانب الآخر يخبرني أن دفتر الحضور قد رفع، وأنني لن أتمكن اليوم من التوقيع فيه، نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط المواجه، سحبت الغطاء فوق جسدي، وعدت

ثانية
إلى النوم.

بلا صوت

أمر بها كل صباح في طريقي إلى العمل، أراها تجلس فوق الرصيف أسفل الكوبري، لا ترتدي غير جلباب أسود وحيد لا تبدله أبدًا، جلباب قديم لوحته الشمس حتى بهت لونه، أراها هكذا تجلس مرتكزة إلى عصاها القصيرة، تضع كفها اليمنى فوق كفها اليسرى، ثم تضع خدها فوق كفيها، لتزداد التجاعيد التي في وجهها بفعل تلك الحركة ظهورًا، لا تتحرك كأنها تمثال تم وضعه بإهمال، تنام في حجرها أكياس المناديل الورقية باطمئنان.

عند دخولي إلى المنحنى أهدئ من سرعة السيارة، أشير لمن خلفي أن يتمهل، أتوقف أمامها، فيبدؤون بإطلاق الكلاكسات، أمد يدي أهزها هزًا خفيفًا فتصحو من إغفائها، أضع في يدها المرتعشة جنيهاً قليلة، فتضع نظرتها المنكسرة في القلب ألماً لا يزول.

فكرت أكثر من مرة بالنزول من السيارة والجلوس إلى جوارها فوق الرصيف، ربما استطعت أن أكسر ذلك الصمت الذي يلفها، فكرت مرة في شراء فطور وتناوله معها ربما حكّت لي عن حياتها، من أين تجيء كل صباح؟ ولماذا هي صامتة طوال الوقت لا تحدث أحدًا ولا يحدثها أحد؟

تتساقط أيامها مثل أوراق جافة أسفل السيارات العابرة فتدهسها، مثلما تتساقط أكياس المناديل الورقية من حجرها حينما تغفو، تتناولها، تنفض عنها الغبار وتعيدها إلى مكانها مرة أخرى.

لا، هي ليست شحاذة محترفة مثل الآخرين، هؤلاء أعرفهم جيدًا، أحس بمدى الزيف في حركاتهم وأقوالهم والمسكنة الزائدة التي يحرصون على إضافتها إلى أصواتهم.

أما هي فتظل صامتة، تمر جلستها بين النظر إلى الشارع نظرات زائغة زاهلة متسائلة، وبين إغفاءات قد تطول أو تقصر، لم أسمعها مرة تنادي على بضاعتها الفقيرة، كما أنها لا ترد

عبارات التسول.

لأيام طوال لم يكن عليّ أن أهدئ من سرعتي، كنت أعبّر المنحنى بسرعة مناسبة لا تزعج المتعجلين الذين يأتون خلفي، وفي كل مرة أفشل في الفرار من وخزة ألم أحسها في صدري كلما مررت بمكانها الذي صار خاليًا.

لعدة أيام ظل مكانها خاليًا، قبل أن تملأه حياة أخرى ستأخذ في الذبول يومًا بعد يوم.

فوق مقعد قديم

كان يوماً حارًا، وكنا ثلاثة أصدقاء نجلس خارج المقهى، تركت صديقي يتبادلان الحديث بينما كنت مشغولاً بانتظارها.

قال أحدهما: ستأتي مرتدية الأسود.

وقال الآخر: لا بل ستأتي مرتدية الأزرق.

قلت أنا، بينما أضع فوق المنضدة الرخامية كوب الشاي بالنعناع، بعد أن ارتشفت منه رشفة أنعشت روحي، وأتابع عصفورًا عائدًا إلى شجرة البونسيانا الكبيرة، التي تتساقط وريقاتها الصغيرة فوقنا والتي تحمينا من أشعة شمس منتصف النهار:

- لا.. ستأتي مرتدية الرمادي.

قلتها دون النظر إليهما، بل كنت أنظر إلى البعيد، إلى المكان الذي لا بد أنها ستشرق منه، قلتها بيقين من رأى وعرف، بل إنني كنت أشم رائحة عطرها آتية من هناك.

نظر إلي صديقي بتعجب، بينما يرتشفان قهوتيهما المرة بتلذذ.

بعد قليل، قال أحدهما:

- ستأتي من هذا الاتجاه.

وأشار إلى اليمين، فصدق الآخر على كلامه، قلت أنا، بينما يرفع النادل الأكواب الفارغة:

- لا، ستأتي من هذا الاتجاه.

لم يكن منطقيًا أن تأتي من حيث أشرت، فالمحطة القريبة تقع في الاتجاه الذي أشار إليه صديقي.

لكن ما لم أقله لهما إنني رأيتها، رأيتها وهي تصعد درجات النفق، ثم تخرج إلى الشارع، وبدلاً من أن تنحرف إلى الشارع الثاني يمينًا، انحرفت إلى الشارع الأول لتضل الطريق، وتظهر من حيث أشرت بثيابها رمادية اللون.

نظر إليّ صديقيّ بدهشة، بينما هي تسرع الخطى، وتلوح لنا بيدها اليمنى، التي تنهمر من أناملها الموسيقى.

فوق نفس المقاعد الخشبية التي تغيرت ألوانها، نجلس نفس جلستنا لا ننتظر أحدًا، سيقول لي صديقيّ، بينما نضع بأكف واهنة أصابتها رعشة خفيفة فناجين القهوة، إن الشارع لم يكن كما قلت أنا خاليًا إلا منها، وإنه لم تكن هناك طيور ملونة وفرشات جاءت في صحبتها كما قلت، بل لم يكن غير زحام وضجيج ومشاحنات، وبائع أفزع صوت ميكروفونه العصافير فوق الشجرة الكبيرة، العصافير التي رحلت ولم تعد مرة أخرى.

وجع المسك الأبيض

بعد سنوات من النسيان، عاد عطرها لاجتياحه مرة أخرى، تذكر المرة الأولى التي رآها فيها، كان ذلك مساء يوم شتوي بارد، عندما دخلت إلى القاعة تصحبها سحابة بيضاء سكبت عطرها فوق روحه المتعبة.

في الطريق من البيت قرر عدم الذهاب إلى الحفل الذي دُعي إليه منذ أيام، قال في سره، بينما يتابع في المرأة سيارة سوداء مسرعة تأتي خلفه، وهو يحاول إفساح الطريق لها حتى يمر جنون سائقها إلى جواره دون أذى.

: لن أذهب إلى الحفل، سأذهب إلى العمل.

هكذا هو دائماً يعيش منذ سنوات مثل قطار تم وضعه فوق قضيبين، وأجبر على السير المتواصل دون توقف أو انحراف عن المسار، لا شيء يفعله غير العمل، لا شيء غير بعض جلسات مع أصدقائه كل شهر أو يزيد، جلسات متباعدة يحاول خلالها إفراغ طاقة الضحك والسخرية المكبوتة داخله، قبل أن يعود إلى روتينه اليومي.

عندما انتهى من شراء ما يحتاج إليه من أوراق وأقلام وملفات وغيرها، ووضعها في شنطة السيارة، رن هاتفه، كان صديقاً على الجانب الآخر يعاتبه على تأخره عن الحفل، ويخبره بحضور الأصدقاء جميعهم، لم يستطع أن يعتذر عن عدم الحضور، فقط قال له إنه في الطريق إليه، بصوت من فمه حاول إنزال القطة التي اتخذت من سقف سيارته سريراً لها، أدار المحرك وهو لا يعرف لماذا غير رأيه.

كان صديقه قد دعاه منذ أيام لحضور حفل توقيع كتاب جديد له.

قطع المسافة بين نزوله من السيارة وبين المبنى المقام به الحفل جرياً، لكن في طريقه إلى القاعة استوقفه معرض لأحد الفنانين، هو عاشق للفن التشكيلي، كثيراً ما تمنى لو كان فناً تشكيليّاً، لكنه لا يعرف أن يرسم غير وجوه تضحك أو تعبس، مرت عيناه سريعاً على اللوحات، لكنه توقف طويلاً أمام لوحة لمقعد وحيد في مواجهة البحر، رأى نفسه جالساً هناك فوق ذلك المقعد، ينظر إلى ذلك المجهول الممتد أمامه بلا نهاية، والذي لا يعرف ما يخبئ خلفه وبداخله.

دخل إلى القاعة، كان الحفل قد بدأ، وصديقه يقرأ فقرات من روايته الجديدة، حياه بابتسامة وإيماءة من رأسه، فرد صديقه التحية بابتسامة خفيفة وهو يواصل القراءة، رأى أصدقاءه يجلسون في المقدمة.

شعر بالعطش فقام من مكانه ليخرج من القاعة التي أعدت على شكل مسرح، صعد السلالم المؤدية إلى الباب الخلفي، قبل خمس درجات تسمر في مكانه حين انفتح الباب عليها، التقت عيناه بعينيها، مرت إلى جواره، فالتفت يتبعها بنظراته حتى جلست في منتصف القاعة وهي لا تدري ما فعلته به، نسي عطشه وجلس على أقرب مقعد في نهاية القاعة، يحاول استعادة أنفاسه وتنظيم دقات قلبه، فكر: هل كان عطشاً فعلاً أم أن عطش روجه هو الذي دعاه للقيام من مكانه، ليلتقي بتلك السحابة التي أغرقت صحراء روجه بهجة؟ هل أحس باقتراب اللقاء فقام من مكانه لاستقبالها؟

هو لا يذكر ما دار بين جلسته وحيداً في المؤخرة، وبين انتقالهم للجلوس في حديقة المكان أسفل سقيفة في حديقة خارج القاعة، كان مأخوذاً بسحر مسه حين مرت بجانبه فلم يع ما يدور حوله، فقط كان ينظر إليها شاردًا وينصت إلى البهجة التي تنساب من صوتها.

التقى بها بعد ذلك عدة مرات، بعضها باتفاق مسبق وبعضها مصادفات كان يخلتها، حتى جاء يوم وطلب أن يلتقي بها، ظل ينتظرها وعيناه معلقتان بالحاجز الزجاجي المطل على الشارع، وكلما توقف تاكسي أمام المقهى انتظر هبوطها منه، لمرات كان يشعر بخيبة أمل

كلما نزلت فتاة غيرها، جاءت، رآها تهبط من التاكسي، تمنى لو أن المسافة كانت أقصر، سلمت عليه ثم جلست أمامه، سألتها عن ذلك العطر الذي يوضع منها، قالت إنه مسك أبيض، بعد أن انتهت من تناول قهوتها اقترح عليها أن يتناولوا تفاحًا ساخنًا بأعواد القرفة، قالت إنها لم تجربته من قبل، أعجبها مذاقه، تحدثنا طويلاً وقاما على موعد بلقاء جديد.

ظلاً لأيام يتحدثان عبر الهاتف ولم يلتقيا ثانية، حتى جاء يوم اختفت فيه وانقطعت أخبارها، بحث عنها في كل الأماكن التي تعود أن يصادفها فيها، سأل عنها فقالوا إنها سافرت إلى الخارج ولا يعرفون متى ستعود.

التوقف عن تناول التفاح الساخن بأعواد القرفة لم يكن حلاً، فقد ظل مذاق الكلمات والضحك والأسى عالقاً بلسانه، ولأعوام ظلت رائحة المسك الأبيض تطارده فيشعر بحزن يئب في قلبه، حتى جاء يوم اختفت فيه تلك الرائحة المعذبة بلا سبب مثلما اختفت صاحبته.

ارتدى ملابسه، أنزل قطة كانت ترقد فوق سطح سيارته بالعصا التي يستند عليها، قاد سيارته وكان يحاول إفساح الطريق لجنون من يمرون إلى يساره، رن هاتفه، كان صديقه يطمئن على مجيئه، ومثل المرة السابقة لم يكن يريد الذهاب لكنه رد بأنه في الطريق إليه.

أمام إحدى اللوحات رآها، كانت تقف أمام لوحة لسيدة تجلس أمام بحر ممتد وشمس حمراء تغرق في نهاية اللوحة، بينما شال ملقى على الأرض إلى جوارها، الموسيقى التي كانت خلفية لجلستهما الوحيدة والطويلة منذ سنوات عادت ترن في أذنيه، اقترب منها، ناداها باسمها فالتفتت، كانت ابتسامتها التي أسرته منذ سنوات لا يذكر عددها كما هي، فقط تغيرت ملامحها وظهرت شعيرات بيضاء أسفل شال تعلقت روحه بأطرافه ذات يوم بعيد، تبادلًا حديثًا سريعًا وافتراقًا دون موعد بلقاء.

قبل أن يخرج التفت إليها مرة أخرى وزفر زفرة طويلة وهو يقول في سره

«أنت لا تعلمين أي قلب أضعت»

عاد إلى البيت فعادت رائحة المسك الأبيض التي غابت منذ سنوات لاجتياحه مرة أخرى، فاجأته ريحها بينما كان يفتح باب شرفة بيته التي يجلس بها ليلاً ليستمتع لموسيقى وحدته.

لأعوام تالية حاول الهرب من تلك الرائحة دون جدوى، حتى إنها كانت تفاجئه في منتصف ليالات الأرق الطويلة، لم يستطع الخلاص منها حتى إنها سارت خلفه في الطريق المترب الذي يؤدي إلى المقابر.

ورقة

أخرجت قلبي، وطويته خمس طيات، ثم قدمته إليها، تناولته مني، أطبقت عليه، لم تفتح الورقة المستسلمة لقدرها لتقرأ ما فيها، فقط نظرت إليها باستهانة كأنها لا شيء، ثم ألقى بها إلى السيارات المسرعة.

آخر الليل عدت بصدر فارغ، كلما نقرت عليه أصدر أصوات فقد وحنين، وبكاء يأتي من عالم بعيد، كنت أسمع صوت رياح تعبر صدري، فأشعر بالبرد والوحشة والخوف.

كلما مرت السيارات فوق الورقة التائهة التي ضلت طريق عودتها، كانت الحروف تتطاير منها بين العجلات، حتى تجمعت على جانب الطريق تتألم، تبعثها في طريقها إلى بيتها، صعدت وراءها الدرج، حاصرتها، كانت كلما وضعت رأسها فوق وسادتها كل مساء تلتف الكلمات حولها، فتشعر بدوار يحرمها النوم، لم تُجد العقاقير التي أوصى بها الأطباء نفعًا، فظلت لسنوات مؤرقة في شباك مفتوح على مدينة غائمة.

شخص آخر

ظل سائرًا لمدة طويلة في طريق ضيق، تصطف على جانبيه أشجار هائلة، تصنع أغصانها سقفا لهذا الممر، أحيانا يرتفع ذلك السقف، فيسير معتدل القامة، وفي أوقات أخرى ينخفض السقف، فيسير حبواً، وأحيانا كان يضطره السقف المنخفض للزحف، فيشتم رائحة الأرض المبتلة تحته، أحس بالتعب، لكنه فضل مواصلة السير، وهو يجرف في قدمه اليسرى سلسلة ثقيلة تنتهي بكرة حديدية ربطوها في ساقه، بعد أن أقنعوه بأنها هامة وضرورية.

لم يسألهم عن أهميتها، بل استسلم لما قالوه وقبل به.

حين رأى ضوءًا خافتًا في نهاية الطريق دب في جسده النشاط، فسار مسرعًا رغم الثقل الذي يكبل قدمه، عند نهاية الطريق وجد نفسه عند هوة لا نهاية لها، كانت الأرض تتحرك تحت قدميه، فرد ذراعيه محاولاً أن يحافظ على توازنه، لكنه واهوووووو.

ارتطم بأرض الغرفة الباردة، جلس فاردًا ساقيه وهو يمسح وجهه بكفيه، نظر إلى الشباك الذي يتسلل منه الضوء، مد يده إلى المنبه ليوقف دقاته التي يزيد صوتها من توتره، حمل المنبه من مكانه ووضع فوق المكتب، لاحظ أن الورد الذي في المزهريّة جف، فألقى به في السلة الممتلئة بأوراق ممزقة.

بعد أن ارتدى ملابسه صفف شعره، نظر إلى وجهه في المرآة، مرر أصابعه فوق جبهته محاولاً فرد تجاعيدها، وتمنى لنفسه يوماً أقل سوءاً من كل أيامه السابقة.

وضع المنشفة فوق كتفيه وخرج من الحمام، عندما وصل إلى شباك غرفته ليفتحه سمع صوتاً في سريره، وشعر بشيء يتحرك تحت الغطاء الذي تركه منذ دقائق.

اقترب بهدوء من السرير، وعندما رفع الغطاء لم يشعر بنفسه إلا واقفاً عند باب الغرفة من هول المفاجأة، كان النائم في سريره هو نفسه، بنفس ملامحه، وبذقنه التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيام، والجرح القديم الذي في جبهته.

ذهب إلى المرأة مسرعاً ليتأكد من وجوده، وحين وجد صورته ترتسم أمامه ازداد جنونه، كان يتوقع ألا يكون موجوداً، فإذا كان هو موجوداً، فمن إذن الذي ينام في سريره؟ اقترب مرة أخرى من سريره، ورفع ببطء الغطاء عن النائم أمامه، أخذ يهزه ليستيقظ، هزه في البداية هزاً خفيفاً، ثم هزه بعنف، لكن لم تبد منه أية حركة.

ناداه باسمه فلم يجب، أحس بالصداع الذي لازمه ليومين يعود إلى مقدمة رأسه مرة أخرى، بحث في أدراج المكتب عن الأقراص، التي اعتاد أن يتناولها كلما أحس بالصداع، ذهبت عنه رغبته في تناول الفطور، وجد أن موعد نزوله إلى العمل اقترب، ارتدى ملابسه بسرعة، وعندما هم بالنزول أخرج من الدرج نسخة من مفتاح شقته، وتركه بجوار النائم، فربما يستيقظ، ويريد الخروج.

المساء يقترب وهو جالس في الشرفة يراقب المارة، وفي يده كوب شاي ساخن، أحس بالارتياح أن شبيهه الذي رآه في الصباح لم يعد موجوداً، لكن في طريقه إلى المطبخ ليعيد كوب الشاي الفارغ سمع صوت باب الشقة وهو يفتح ويدخل منه شبيهه، ويدخل إلى غرفة نومه، ويهم بخلع ملابسه، دون حتى أن ينظر إليه، كان يرتدي الملابس نفسها التي ارتداها هو عند خروجه إلى العمل، وكان يحمل الحقيبة السوداء نفسها، أسرع بوضع الكوب في حوض المطبخ وعاد جرياً إلى غرفته، وجده يرتدي الملابس نفسها التي يرتديها هو الآن، نظر إلى ملابسه، لم يعره شبيهه اهتماماً، دخل إلى السرير وشد الغطاء فوق رأسه، تماماً مثلما يفعل هو في الليالي الباردة.

ألقي بجسده على مقعد في الصالة وهو ينظر إلى السقف، كان يفكر في التخلص منه، فكر أن يقتله بالسكين، لكنه لا يحب مشهد الدم، وخشي أن يلوث دمه الفراش، هل يضع له سما

في الطعام؟ لكنه لم يشاهده يأكل ولو لمرة واحدة.

إذن سيجره إلى الشرفة ويلقي به من هذا الارتفاع الشاهق، فكر أن الناس سيعرفون أنه من قتله عندما يرون التشابه بينهما لدرجة التطابق، فكر أن يشوه وجهه أولاً حتى تختفى ملامحه، لكن هذا فظيع، هكذا قال لنفسه، وهل تهون عليك نفسك؟ انتبه إلى أن وجهه سيظل سليماً لكنه سيشوه وجه هذا النائب.

مر بيده على وجهه، فأحس بالراحة عندما اكتشف ذلك، أخذ يبحث في الأشياء القديمة عن المكواة الحديدية التي ورثها عن أبيه، الذي ورثها بدوره عن جده.

حملها بيده اليمنى، وأخذ يقترب بحذر من السرير، وعندما أمسك بطرف الغطاء ورفعها بسرعة، وجد السرير خالياً.

الحادث

عندما استيقظت كان رأسي لا يزال يؤلمني، والصداع عند مؤخرة رأسي يدق دقات منتظمة، شعرت بشيء لزج بين أصابع يدي، رفعت كفي اليمنى في الضوء الخفيف الذي بدأ يكسو الغرفة، والذي يتسلل إليها من النافذة الصغيرة، كانت يدي غارقة في الدم، رفعت كفي اليسرى وتحسسته بأصابع يدي اليمنى، كان أيضا غارقًا في الدم، كنت أشعر بألم لا يطاق في ساقى اليمنى، حاولت ثنيها فلم أستطع، جلست في السرير وكشفت عنها الغطاء، تحسستها بيدي، يبدو أن هناك كسرًا في قصبه الساق.

تذكرت أنني قبل أن أستيقظ رأيتني أتهياً لعبور الطريق، وسيارة مسرعة جاءت وصدمتني وتركتني ملقًا بجوار الرصيف، كنت قد نزلت من المكتب متأخرًا، ظللت أعمل حتى بعد انصراف الموظفين، كنت أمسك في يدي اليمنى حقيبة أوراقي، وعندما هممت بعبور الشارع، الذي بدا خاليًا، ظهرت فجأة سيارة مسرعة، ارتبكت، ترددت: هل أقف مكاني أم أعبّر الطريق؟ في لمح البصر قررت العبور، حاولت أن أجري بأقصى سرعة ممكنة لتفاديها، لكنها كانت قد صدمتني بحافتها، فوقعت بجوار الرصيف، وطارت الشنطة إلى مكان بعيد.

الشنطة، شعرت بالذعر حين تذكرتها، بحثت عنها حيث أضعها دائما عند العودة إلى البيت، وجدتها في مكانها يعلوها التراب، وعلى حوافها تبدو آثار سحجات وجروح.

وأنا بين اليقظة والغيوبة والمارة متجمعون حولي رأيتها، كانت تقف على الرصيف المقابل تنظر إليّ بسخرية، وتضحك.

لا أعرف لماذا كانت تضحك بينما أنا ملقى على الأرض هكذا أنزف حزنًا ودمًا ووحشة، ما الذي أتى بها الآن في هذا الوقت المتأخر؟ كنت قد نسيتها في زحمة الأوراق والأرقام، كان صوتها قد اختفى خلف صوت مفاتيح الكيبورد وأصابعي تدق عليها، لم أعد أرى وجهها

فوق الشاشة، فارتبك كما كان يحدث من قبل، أصبحت الشاشة رائقة وثابتة في مكانها، لم أعد أرى فوقها غير الأرقام.

كانت روحي تنن في تلك اللحظات، ولم أكن فقدت الوعي بعد، سمعت أحد الذين تجمعوا حولي يقول إنه قد أخذ أرقام السيارة، نعم أنا الآن أتذكر تلك الأرقام.

بعد قليل دق جرس الباب، قامت أمي التي انتهت من أداء صلاة الفجر، وجلست بالصلاة فوق مقعدها المعتاد تردد الأذعية التي أطمئن عند سماعها، قامت مسرعة، وقفت خلف الباب، وبصوت قلق سألت عمّن يأتي إلينا في هذا الوقت الباكر، رد من بالباب:

- إسعاف.

ردت أمي: ليه يا ابني احنا ما طلبناش الإسعاف.

- لا يا حاجة جالنا بلاغ ان فيه حد خبطته عربية، ونقلوه للبيت بس هو محتاج يروح المستشفى.

حاولت أن أنادي أمي، لكن صوتي لم يخرج في المرة الأولى، حاولت مرة أخرى، خرج صوتي ضعيفًا مرتعشًا:

- افتحي لهم يا أمي.

دخلت أمي ومعها المسعفون، نظرت إليّ، رأيت دموعها تسيل فوق خديها، وضعت كفها الطيبة فوق جبهتي، وقالت لي:

- سلامتك يا بني.

أخذوني إلى المستشفى، وضعوا ساقى في الجبس، أما يديّ فقاموا بتنظيفهما، ووضع القطن والشاش حولهما.

جاء ضابط البوليس، وطلب مني أن أقص عليه ما حدث، قلت له إنه في أثناء الحلم...

قاطعني، وقال لي: أي حلم؟ قلت له إنني رأيت سيارة تصدمني في الحلم.

نظر إليّ الضابط باستغراب:

- عن أي حلم تتحدث؟ فالحادث وقع بالفعل، والسيارة التي صدمتك تم التوصل إليها، واعترف قائدها بفعلته.

قلت: إنها سيارة زرقاء.

قال: بالفعل هي زرقاء رقم...

وذكر لي رقم السيارة، كانت هي بالضبط نفس الأرقام التي سمعت أحدهم يقول إنه التقطها أثناء الحلم.

سرحت في الستارة البيضاء الموضوعة فوق الشباك.

طلب مني الضابط أن أوقع على أقوالي، ناولني الكاتب الذي معه القلم، وضعه بين إصبعين ملفوفين بالشاش، وبالكاد كتبت اسمي تحت أقوال لا أتذكرها الآن.

بعد أن خرج الضابط وضعت رأسي على الوسادة، ورحت في نوم عميق.

فراشة بيضاء

عندما وجدت أنني لا أفعل شيئاً قررت النزول من البيت، إلى أين؟ لم أكن قد قررت ذلك، فقط نزلت كأنني أهرب من شيء لا أعرفه، شيء ما دفعني للنزول، سرّت فوق الأرصفة بلا هدف محاولاً تفادي الاصطدام بالذين يمرون بجانبني، لا أريد الاصطدام بأي منهم، ربما لكّزك أحدّهم بذراعه فلا يلتفت إليك معتذراً، فقط يستمرّ في سيره كأن شيئاً لم يكن، ربما داس أحدّهم طرفَ حذائك فتسبب في خلعه فلا يعيرك اهتماماً أيضاً، رفعتُ يدي اليسرى كي أنظر إلى ساعتني، لم تكن موجودة، وضعت اليد اليمنى في جيبني لأخرج هاتفني المحمول، كان جيبني فارغاً، تنهدتُ وواصلت السير مرّة أخرى، لا أعرف إلى أين ولا كم الساعة، سخرتُ من حرصني على معرفة الوقت في يومٍ ككل الأيام التي تكرر نفسها منذ أمد بعيد، حاولتُ أن أسأل أحد المارة عن الساعة لم يرد علي، سألت غيره وغيره، يبدو أنهم لا يرونني ولا يسمعونني، توقفتُ، أردت عبور الطريق إلى الجانب الآخر، السيارات تمر بسرعة، تدهس في طريقها كل من يحاول المرور، لم يكن ما يحدث يثير اهتمامهم، كانوا ينظرون إلى الدماء التي تملأ الطرقات كأنها شيء عادي، حتى الذين تدهسهم السيارات يتحولون في اللحظة ذاتها إلى أشباح صامتة، تنهض لتواصل السير إلى الجهة الأخرى، نظرت إلى اليسار، أحاول اقتناص لحظة آمنة يمكنني فيها عبور الطريق، اكتشفت أنني لا أخشى التحوّل مثلهم إلى شبح، سيترك جثته تنزف، ويواصل السير، تساوت عندي الحياة والموت، ثرى هل هناك فرق؟ ما الجديد في أن نحيا وما الذي لم نعشه في الموت بعد؟

امتلاً الهواء حولي فجأة برائحة المسك، التفث، فرأيتها عن يميني واقفةً إلى جوارني، كانت بلوزتها الزرقاء مزدانة بوردادات تحيط بعنقها الأبيض، تلتنع من تحت ثنيات قطرات عطرها الممتزجة بنداها، تضع فوقها سترة من الصوف الناعم، وتعلّق فوق ذراعها اليمنى الممدودة حقيبة صغيرة، قرأتُ في عينيها الحيرة والخوف والتساؤل، كأنها تبحث عن يأخذ بيدها إلى الجانب الآخر، وسط هذا الجنون تلاقى أعيننا، ولا أدري ما الذي حدث بعدها، لا أذكر

إذا كنا قد تحدثنا معًا أم لا، ولكنني موقن أنني أتحدث معها كثيرًا منذ زمن بعيد، اقتربت
يدي اليمنى من يدها اليسرى، أمسكت بها، وعبرنا الطريق معًا، فتوقفت السيارات واختفى
ضجيجها، متى وُجِدَت تلك الأشجار الخضراء الكثيفة التي تسكنها عصافير لا حصر لها؟
نظرت إلى جذوعها فبدأ أنها هنا منذ زمن بعيد، متى اختفت الدماء لتلتصع الطرقات تحت
أشعة شمس
حانية؟

عندما وصلنا إلى الضفة الأخرى، توقفنا أمام محل للعاديات القديمة، امتلأت عينها فرحةً
وهي تنظر إلى الجراموفون القديم، قالت إنها عاشقة للأغنيات القديمة، ضغطت فوق كفها
الرقيقة برفق، همست في أذنها التي يتدلى منها قرط يتراقص في الهواء: سأشتريه لك.
قالت: وهل ستستمع معي لهذه الأغنيات؟

نظرت إليها مبتسمًا: نعم سأستمع إليها معك.

من بين الأشياء الكثيرة التي يعجُّ بها المكان عثرتُ على روعي القديمة، روعي التي تُشبه
فراشة بيضاء، كالفراشات التي طاردها كثيرًا في الحقول المحيطة بمنزلنا القديم، الحقول
التي ستتحوّل بعد سنوات إلى بنايات خرسانية متلاصقة، نظرت إلى روعي التي ينبعث
النور من أجنحتها، بُحثُ إليها صامتًا بافتقادي لها، بغربتي عني منذ أن غادرتني، لا أذكر
متى، لا أعرف متى ضاعت مني، ربما سقطت مني ذات حزن فوق رصيف بارد، ربما عثر
عليها أحدهم وأتى بها إلى هنا، انسابت الدموع فوق خدي، شعرتُ بكفها الناعمة تمر فوق
وجهي وتكفكف دموعي، عندما أمسكت بالفراشة البيضاء ومدت إليّ كفها خرج النور من
أجنحتها، فشعرت به متسللاً إلى صدري، عندها فرّ طائرٌ أسود من بين ضلوعي، رأيته يعلو
مرتعدًا ليختفي خلف البنايات البعيدة!

سرير فارغ

مثل كل يوم تخرج من عملها مسرعة، وفي طريق عودتها إلى البيت تمر بمدرسة ابنتها الوحيدة، كانت تلك مهمة زوجها قبل أن يرحل، تظل فوق الرصيف تتعلق عيناها بالباب تنتظر خروجها وهي تحمل حقيبة الكتب خلف ظهرها، تراها قادمة بابتسامتها الشقية، تجري إليها، تحتضنها، تسيران متلاصقتين، تضع الأم ذراعها فوق كتف ابنتها تسألها عن يومها الدراسي، تحكي لها بالتفصيل ما حدث، تفرح حين تعرف أنها قد حصلت على الدرجة النهائية في امتحان الرياضيات، تضحك الأم بصوت عال وهي تقول لها:

- مش قلت لك انتي شطورة!

تمران بمحل الأيس كريم، البنت تحب الشيكولاتة والفانيليا وأمها تحب المانجو، تحمل كل واحدة الكوب البلاستيكي الممتلىء بالبهجة، وتحملان في الذاكرة ابتسامة البائع الأسمر ذي الأسنان البيضاء الناصعة، وهو يمد يده إليهما بالأيس كريم، تلتفت البنت خلفها تراه يلوح لها مودعًا، تتبادلان تذوق الأيس كريم، تحاول كل واحدة منهما إقناع الأخرى بطعم ما معها، ربما تبدل إحداهن ماتعودت على شرائه في كل مرة وتجرب طعمًا جديدًا، تقف الأم عند بائعة الخضار التي يقع دكانها عند ناصية الشارع، تلقي عليها التحية، تقوم البائعة من مكانها المعتاد بجوار باب المحل تنفض جلبابها الأسود وهي ترحب بهما، تمد البائعة يدها إلى الصغيرة بحبة مشمش بعد أن تمسحها في جلبابها، تتردد في أخذها منها، تنظر إلى أمها مستأذنة، تبتسم لها وهي تقول:

- خديها يا حبيبتي

تشتري ما تحتاجان إليه وتصعدان السلالم وهما تغنيان معًا على وقع أقدامهما.

تدخل البنت إلى حجرتها، تبدل ملابسها بينما تنهك الأم في إعداد الطعام، عندما تنتهي من صنعه توقظها لتناول الغداء معها، تجلسان على المائدة متجاورتين، تظل الأم تتابع الصغيرة وهي تأكل، إلى أن تطمئن إلى أنها قد شبعت، عادة ما تظل الصغيرة تنظر إلى صورة والدها المعلقة في صالة البيت، تتذكره عندما كان ينزل معها درج البيت ممسكاً بيدها في طريقها إلى المدرسة، تتذكره عندما كان ينتظرها أمام المدرسة في نهاية اليوم الدراسي، وحرصه الدائم على أن يشتري لها الشيكولاتة التي تحبها، بعد أن تنتهي من طعامها تقوم بعد ذلك لمذاكرة دروسها، بعد قليل تأتي لها أمها بعصير البرتقال الذي تحبه، تجلس إلى جوارها تراجع معها الدروس.

مثل كل ليلة، تجلس إلى جوار سريرها، تسرح أصابعها في شعرها الناعم، تحكي لها عن بلاد عجيبة، عن بحار وجزر وبشر وحيوانات، ترى البسمة تضيء وجهها، ربما تغني لها أغنية تحبها، تظل هكذا إلى أن تذهب ابنتها في النوم، تقوم من مكانها، تطفئ الإضاءة بعد أن تكون قد أحكمت الغطاء فوق السرير الفارغ.

في طريق عودتها تمر ببائع الأيس كريم، تشتري الشيكولاتة والفانيليا، يمد البائع يده بالكوب وهو يحاول رسم ابتسامة تستعصي عليه، تصل إلى البيت تدخل إلى ظلمة الصالة، تضع كوب الأيس كريم السائح فوق المائدة.

تلك الحقيبة السوداء

بالأمس، رأيتني داخلها، أحاول تذكر الأرقام التي تُفتح بها، جربت العديد من الأرقام لكنها لم تفتح، بحثت عن شق في جوانبها يمكنني الانفلات منه، لكنني لم أجد، فقد كنت شديد العناية بها، ما أن يظهر قطع ولو صغير حتى أسرع بعلاجه، كنت أنادي على من يخرجني منها، لكن يبدو أن صوتي لا يصل إلى أحد، شعرت بالاختناق من رائحة الأوراق والملفات التي تكتظ بها.

كنت أعرف أنني أحلم، اجتهدت كثيرًا في محاولة إيقاظي، حاولت أكثر من مرة لكن محاولاتي باءت بالفشل، فواصلت محاولة الخروج من الحقيبة التي أخذت جوانبها تضيق عليّ حتى كادت تعتصرني، أسرعت بتجريب أرقام أخرى عليها تفتح.

لا أتذكر اليوم الأول الذي حملتها فيه، لكنني أعرف جيدًا أنها أصبحت ملتصقة بي، تحولت إلى جزء مني أفقده حين لا تكون معي، أظل أتساءل عن ذلك الشيء الذي ينقصني كلما هممت بالتحرك من المكان إلى أن أتذكرها، فأقول في سري: نعم إنها حقيبتني، ثم يكون السؤال التالي: ولماذا هي ليست معي؟

ربما لأنني لا أحتاج إليها فيما أقوم به من عمل، ربما تركتها في السيارة، ربما تركتها في مكتبي لأن اليوم هو آخر يوم عمل في الأسبوع، وفي اليوم الأول من الأسبوع التالي سأذهب مباشرة إلى المكتب، ولن أكون بحاجة إليها.

سأجدها بجوار الحائط، في المكان الذي تركتها فيه، ربما تساءلت في عتمة المكان: لماذا تركتني صاحبي هنا؟ لماذا لم يأخذني معه إلى البيت؟

هل أحست بالخوف، وهي موجودة بجوار الحائط تنظر في الظلام إلى الأوراق المكسدة فوق المكتب، وتشعر بالبرد من هواء آتٍ ربما من شباك نُسي مفتوحًا؟

منذ ما يزيد على أربعة وعشرين عامًا وهذه الحقيبة لا تفارقني، تغير شكلها، وتغير حجمها مرات عديدة، وتغيرت طريقة حملها، ما بين ذات الحزام الطويل الذي أضعه فوق كتفي، وبين ذلك المقبض الذي أمسك به بكفي، حتى إنه قد ترك أثرًا في أصابعي وباطن كفي، لكن لونها لم يتغير قط، لا أذكر أنني حملت حقيبة بلون آخر، ربما لاعتقادي بوقار وفخامة اللون الأسود، هذا اللون الذي تصيبه أحيانا بعض الخدوش، فأجلس في نهاية الأسبوع لأداوي بقطعة من الإسفنج وبالأصابع جروحها، لتعود إلى بريقها من جديد.

عندما أستيقظ من نومي، عادة ما تكون الحقيبة هي أول شيء تقع عليه عيناى، أجدها في مكانها بجوار الكرسي الموضوع تحت الشباك، في الأيام التي أقوم فيها من النوم وليس بي رغبة في الذهاب إلى العمل، أنظر إليها نظرة غضب، لكنها تعرف أنني في النهاية سأستسلم وأقوم بحملها وأنزل سلالم البيت.

عادة ما أتركها بنفس المكان لتظل طوال الليل هناك، ربما تستمع لصوت أنفاسي وأنا نائم، ربما تستمع لهلوساتي التي قد تصدر عني.

رافقتني كثيرًا في تحركاتي، عادة ما كانت تحتوي على كتاب لأقرأه عند ركوبي المواصلات، صارت الآن تخلو منه بعد أن توقفت عن عادة القراءة في المواصلات منذ امتلاكي سيارة خاصة.

أحيانا يكون وزنها ثقيلاً بسبب ما تحتويه من أوراق وملفات، فأشعر منها بالضيق لأنها تسبب ألمًا في ذراعي، فأظل أنقلها من ذراع إلى الأخرى، لكن في كل الأحوال أشعر أن يدي قد تعودت على ملمس مقبضها، وتعودت هي أيضا على ملمس يدي.

جهاز إنذار

كانت الساعة قد تخطت الرابعة فجرًا، عندما استيقظوا على صوت جهاز إنذار إحدى السيارات، انتظروا في أسرتهم أن يتوقف هذا الصوت، كان يومًا باردًا جدًا فلم يرغب أحد في ترك فراشه الدافئ، دقائق مرت لكن هذا الصوت لم يتوقف، انتظروا أن يضغط شخص ما يقف في شرفة بيته على زر ليقف هذا الضجيج، انتظروا طويلاً لكن هذا لم يحدث، بعد ما يزيد على الساعتين فُتحت الشرفات والشبابيك بغضب ونفاد صبر، خرجوا جميعًا يتساءلون عن صاحب تلك السيارة الذي طال والديه سباب البعض.

كانت قطة سوداء تحوم حول السيارة التي ينبعث منها الصوت، ارتفعت أصواتهم أكثر لكنهم لم يجدوا من يرد عليهم، كانت الشمس قد أشرقت، دخلوا غاضبين، ارتدوا ملابسهم وذهبوا إلى أعمالهم تعلو وجوههم علامات التعب والضيق.

عندما عادوا كان جهاز الإنذار لا يزال يعمل، عندما دخلوا إلى بيوتهم اضطروا إلى رفع أصواتهم ليتمكنوا من الاستماع لبعضهم البعض.

ما حدث بدأه أحدهم، هذا الذي نادى على زوجته التي كانت بالمطبخ لتحضر له بعض الملح لكنها لم تسمعه، فثار وتشاجر معها، فما كان منه إلا أن فتح النافذة وقذف بحذائه السيارة، ثم فُتحت باقي النوافذ الواحدة تلو الأخرى، وأخذوا جميعًا في قذف أحذيتهم باتجاهها، الأطفال الذين كانوا يلعبون في الشارع تشجعوا، فتركوا لعب الكرة وأفلت بعضهم خيوط الطائرات الورقية التي بأيديهم، وبدؤوا في قذف السيارة بالحجارة.

كل هذا لم يسكت الصوت الصادر منها، فقط أصبح صوتها مكتومًا وأصبح يسبب المزيد من الضيق، أصبح الآن لديهم كومة كبيرة من الحجارة والأحذية القديمة، تصدر صوتًا مكتومًا لا سبيل لإيقافه.

في المساء اجتمعوا حول السيارة، اقترح البعض إبلاغ السلطات، لكن البعض الآخر اعترض بشدة على ذلك إيثارًا للسلامة، ولعدم الدخول في مشكلات لا قبل لهم بها، فربما ظنت الجهات الأمنية أن ثمة مؤامرة في الأمر، وربما قضاوا أياما وليالي في تحقيقات لا تنتهي، ربما أخذوهم الواحد تلو الآخر إلى أماكن غير معلومة ليحققوا معهم، وليحصلوا منهم على اعترافات بأشياء لم يفعلوها، فانصرفوا دون أن يقرروا شيئًا في أمرها.

في الصباح، جاء رجال يرتدون زيًا موحدًا برفقة شاحنة كبيرة، أحاطوا بالسيارة، بدؤوا بإزالة الأحجار والأحذية عنها ليسهل ربطها ورفعها فوق الشاحنة، ارتفع الصوت مرة أخرى، كان هذه المرة أعلى من ذي قبل، أخذ الصوت في الارتفاع حتى إن بعضهم ظن أنه قد أصيب بالصمم من شدته، من الشبابيك المشرعة راقبوها وهي تباعد، أغلقوا الشبابيك، وعادوا إلى عاداتهم اليومية، عندما أنزلوها من فوق الشاحنة، أخذ صوتها في الارتفاع أكثر، حتى إنه كان يصل إلى بدايات العمران.

في المساء، فُتحت الشبابيك مرة أخرى ليتأكدوا من أنها قد اختفت، فقد عاد الصوت مرة أخرى أقوى مما كان.

تفريغ الذاكرة

جاؤوا بي إلى هنا وقالوا لي أن أنتظر، وهأنذا لساعات طوال أجلس فوق مقعد خشبي متعب، في غرفة ضيقة لا يوجد بها إلا باب ضيق وثقيل دخلت منه، لا أعرف منذ متى أغلقوه خلفي دون كلمة، أخذوا ساعتني وحافظة أوراقي وسلموني إيصالا باستلامهما، لذا لا أعرف كم من الوقت مر عليّ، كما أنه لا يوجد منفذ يتسلل منه أي ضوء ولو ضعيف لأعرف هل أنا الآن في الليل أم في النهار، لا شيء في الحجرة غير جدران ملساء فارغة وكرسي أجلس عليه الآن، خلف طاولة صغيرة ذات لون كالح توجد فوقها بعض الشخبطات غير المفهومة، شعرت بالتعب من طول الجلوس فقمتم ووقفت قبالة الجدار، رأيت نملة تحاول تسلقه، كان هناك شق أسفل الجدار حين يئست من الصعود اختفت داخله، انتظرت ظهورها مرة أخرى فقد كانت هي الكائن الحي الوحيد الموجود هنا.

حين عادوا سألتهم عن سبب مجيئهم بي إلى هنا، لم يرد أحد عليّ، فقط قالوا عليّ الانتظار، وضعوا القليل من الطعام وزجاجة ماء أمامي وانصرفوا.

لا أعرف لماذا أخذوا كل أشيائي وتركوا لي فقط هاتفي المحمول، أخرجته من جيب سترتي التي رفعت ياققتها بعد أن شعرت بالبرد يتسلل عبر جدران الغرفة، وكان أكفًا باردة تمتد منها وتعتصر جسدي، هبت نسمة هواء بارد من الفرجة التي أسفل الباب.

حين فتحت هاتفي تصفحت قائمة الأسماء حتى وصلت إلى رقم زوجتي، حين طلبته اختفى الرقم من فوق شاشة الهاتف، كنت أسمع صوت الجرس يأتي مكتومًا ولكن ما من مجيب، جربت الاتصال بأحد الأصدقاء، حدث مع رقمه مثلما حدث مع رقم زوجتي، جربت رقمًا ثالثًا، ورابعًا، ولكن تكرر ما حدث مع كل رقم أطلبه.

لماذا تركوا لي هاتفي؟ ماذا أفعل به؟ لماذا لم يأخذوه أيضًا؟ لماذا تركوه معي بلا فائدة تعود منه؟ لا شيء غير مزيد من الحيرة، لا بد أنهم أرادوا القذف بي إلى الجنون.

كان عليّ الذهاب برفقة زوجتي وطفلي الصغيرة إلى مدينة الملاهي، رن هاتفي لكن لم تظهر فوق الشاشة أية بيانات، فقط رنة لا أعرف ممن، خمنت أنها زوجتي التي تأخرت في العودة إليها، ضغطت زر الإجابة لكنني لم أسمع شيئًا، هتفت، صرخت، علا صوتي حتى سمعت صوتًا كأنه آت من زمن سحيق يأمرني بالصمت، عدت وجلست خلف الطاولة، وضعت الهاتف فوقها ووضعت رأسي بين كفيّ وأغمضت عينيّ ورحت في إغفاءة لا أعرف كم طالت.

أيقظني صوت الباب الثقيل وهو يفتح، شعرت بخدر في ذراعيّ فقممت بفردهما عدة مرات حتى زال عنهما ذلك الإحساس، ظهر حارسان يحملان سلاحيهما ومعهما رجل يرتدي معطفاً أبيض فوق بلوفر كحلي اللون، ومن خلفه رجل آخر يحمل بعض الأدوات، قالوا إنه الدكتور جاء ليأخذ رأسي لأن به العديد من الأفكار الضارة التي يجب فحصها، جاء رجل ثالث يهرول ويحمل في يده رأس آدمي قالوا إنهم سيستبدلون بها رأسي ريثما يقومون بفحص ما في رأسي من أفكار ثم يعيدونها لي.

في غرفة أخرى أنا جالس الآن أمام مرآة، أحمل وجه رجل آخر برأس فارغ تمامًا من الأفكار والذكريات، صرخت طالبًا إعادة رأسي بما فيها من أفكار وذكريات حتى ولو كانت سيئة وأحاول كثيرًا نسيانها، ذلك أفضل بكثير من ذلك الفراغ الذي أشعر به في رأسي الجديد الذي أشعر كأنه صحراء قاحلة لا تمر بها إلا رياح باردة، دخل أحدهم وقدم إلى إيصالا باستلام رأسي، قال إنهم لا يضيعون شيئًا وسيعيدون رأسي إليّ عندما أتوقف عن الصراخ، جاؤوا بحقنة غرسوا سنها في ذراعي اليسرى فغبت عن الوعي، استيقظت لأجدني على رصيف في شارع لا أعرفه، وربما مررت به كثيرًا لكنني لم أعد أتذكر أي شيء، أنا الآن أجلس تحت شجرة كبيرة أستند إلى جذعها القديم الذي يحمل من الذكريات ما لا أحمله، تائه في صباح بارد برأس فارغ تمامًا، حتى إنني لم أعد أتذكر من أكون.

لا أعرف لماذا قاموا بمحو كل ما في رأسي! لماذا لم يتركوا لي ذكرياتي الصغيرة؟ لماذا لم يتركوا لي ذكرى اللقاء الأول بمحوبتي؟ لماذا لم يدعوا لي لحظة أن وقعت عيناى أول مرة على وجه طفلى؟ ماذا كان يضيرهم لو أنهم سمحوا لي أن أتذكر اللمسة الأولى لكفها الصغيرة وهي تتشبث بإصبعى الخنصر، والحنان الذى تسرب إلى روى لحظة أن ابتسمت لي، لماذا قاموا بمحو قائمة الأصدقاء من ذاكرتى حتى إننى لم أعد أذكر اسم أى منهم، أخرجت الهاتف لكننى لم أجد به أى معلومات مدونة، فقط ظهرت شاشة بيضاء لا تحمل اسمًا واحدًا يمكننى اللجوء إليه، لماذا لم يكتفوا فقط بإزالة الأفكار التى تقلقهم، لماذا أصروا على محو ما فى رأسى بالكامل، قمت من مكانى، كانت سترتى مبتلة، خلعتها وأخرجت الهاتف من جيب سترتى وقذفت به فى بركة ماء صغيرة فى منتصف الشارع.

خبر أخير

لا أتذكر إذا ما كانت قد أمطرت في ذلك الصباح البعيد؟ كل ما أتذكره أنني كنت أجلس هنا بجوار الباب، على الرغم من برودة الطقس، لا أحب الجلوس داخل المقهى، تصيبني جدرانه بالاختناق، ربما لتغير لونها من الأبيض إلى الأصفر بفعل الدخان، وبعد أن وضع النادل كوب الشاي أمامي، تناولته، ورفعته إلى فمي، فصعد بخار الشاي، وغطى نظارتي، ومن خلال النظارة المغبشة لمحته هناك واقفًا على الرصيف المقابل على بعد بنايتين، وبعد أن أسند دراجته إلى الجدار تناول من صندوقها جريدة ملفوفة جيدًا، ووقف أسفل الشرفات، وفرد ذراعه على امتدادها، وقذف بالجريدة، وللمرة الأولى منذ سنوات يخطئ هدفه، فقد تعودت أن أراه يمر في هذا الشارع، يقذف بالجرائد إلى الشرفات لتنزل بجوار الزرع الموضوع بها، لكن في هذه المرة ارتطمت الجريدة بالسور الحديدي القديم لإحدى الشرفات، ونزلت إلى الشارع، تناولها، وعاود المحاولة مرة أخرى ففشل أيضًا للمرة الثانية.

حاول عدة مرات، لكنه فشل، وقف ليستريح، مسح العرق، حاول مرة أخرى.

أحس بالوهن، فوضع الجريدة التي سقطت بعيدًا عنه بالصندوق.

بعد أن رأني أتابعه، سحب صاحب المقهى كرسيًا وجلس إلى جوارني، قال وهو يتابع ببصره بائع الجرائد الذي توقف عن محاولاته:

- تعرف يا أستاذ الراجل ده اللي مش قادر يحدف الجرنان كان في شبابه وحش، كان بعد ما يخلص توزيع يبجي يقعد ع القهوة، كنا بنبعته ساعات يغير لنا أنابيب البوتاجاز، فين لما كنت تشوفه جاي من أول الشارع شايل الأنبوبتين كل واحدة على كتف ولا كإنه شايل عصفورتين.

رأيته وهو يسند دراجته إلى السور الحديدي للبيت المهجور الذي يقع في مواجهة المقهى، البيت الذي تحيط به حديقة مهجورة، مر أحد الأشخاص، وألقى عليه التحية، فلم يرد عليه، ودون أن يفتح الباب الحديدي المغلق بسلسلة حديدية تنتهي بقفل صدئ، مر إلى الجانب الآخر من السور.

كان يسير في الممر المرصوف بأحجار صغيرة نبتت بينها أعشاب تتراقص مع هواء ذلك الصباح.

رأيته يصعد الدرجات الخمس، التي يقف عند بدايتها تمثالان لفتاتين تحملان الجرار، الجرار التي كانت في زمن آخر مملوءة بالورود.

إلى اليمين كانت تقف سيارة سوداء، قديمة الطراز، ذات إطارات سوداء بها خط أبيض.

هذه السيارة، التي تطلق كل مساء كلاكسات مرحة، ويقال إنه في نهاية كل عام وعند منتصف الليل تنطلق من داخل القصر موسيقى وضحكات تملأ فضاء الشارع الهادئ، حتى إن بعض الناس يلتفون حول أسوار البيت ليستمعوا إلى تلك الموسيقى التي تتبدل في نهاية كل عام، ويحتفلون ببداية عام جديد.

عندما وصل إلى باب البيت، ومثلما عبر الباب الحديدي، رأته يختفي داخل القصر.

لسنوات ظلت الدراجة في مكانها لا يريد أحد الاقتراب منها، غطاها الصدأ، والتصقت عجلاتها بالأرض، والجرائد التي انتظرها ذات صباح بعيد أصحابها، وتساءلوا وهم يتناولون إفطارهم عن سبب عدم وجودها ما زالت في مكانها في القفص الخشبي، تهطل عليها أمطار الشتاء، وتلفحها شمس الصيف حتى تغير لونها، وأنا تعودت أن أتناول قهوتي في الصباح دون أن أنتظره، ودون أن يمر ويضع أمامي الجريدة، وهو يبتسم.

بائعو البهجة

بلا موعد يجيئون، متى جاؤوا ومن أين جاؤوا، لا نعرف، نستيقظ من النوم في أحد الأيام فنجدهم هناك وقد احتلوا قطعة أرض فضاء واسعة على أطراف منطقتنا، يضربون خيامهم القليلة المصنوعة من قماش ثقيل تهرأ في أجزاء متفرقة، يجلسون قليلاً للراحة ثم ينصبون المراجيح الكبيرة المزينة بألوان كثيرة، وبجوارها يضعون لوحة التنشيين المطرزة بالبمب، وعلى المائدة اصطفت بنادق التنشيين والهدايا الرخيصة التي يعطونها للبارعين في النشان، ينصبون كذلك اللعبة الكبيرة التي تدور بالأطفال على شكل أحصنة، أقف إلى جوارها بعد أن أعطي ثمن الدور للرجل الذي يقوم بتشغيلها، أختار حصاناً من بين الأحصنة الخشبية الملونة التي تتكون منها اللعبة، يحملني الرجل ويُجلسني فوق الحصان، أتشبث به، تحس كفي نعومة الطلاء فوق رقبتة، أنتظر في لهفة اللحظة التي يقوم بتشغيلها فيتعالى الصياح وترتفع البهجة في الجو، ينعشني الهواء كلما ازدادت سرعة اللعبة، أتمنى أن تظل تدور ولا تتوقف، تكون لحظة توقفها لحظة حزينة، لحظة أن يمد الرجل إلينا يديه لينزلنا عنها، يتمنى كل منا دوراً آخر لكن ما معنا من نقود لا يكفي، أحلم بالعثور على نقود تمكنني من أن أركب الألعاب كلها، أتذكر حكاية أمي التي حكته لنا ذات مساء عن الجنيه الطائر والفقير والغني، قالت إنه حدث ذات يوم أن شاهد الفقير جنيهاً طائراً فناداه أن يأتي إليه، فلما وقف أمامه في الهواء سأله: وماذا ستفعل بي؟ فقال له سأشتري طعاماً وشراباً وملابس، ففزع الجنيه وقال له: انت كده هتفرتكني ميت حتة، فطار مسرعاً فناداه الرجل الغني، ولما وقف أمامه سأله: وماذا ستفعل بي؟ قال له سأضعك بجوار إخوتك، فابتسم الجنيه واستسلم له. كانت تود أن تقول لنا إن النقود تفر ممن يحتاج إليها وتذهب إلى من لا حاجة له بها ولديه ما يكفيه.

لا أفقد الأمل، فربما عثرت على عشرة قروش هربت من جيب أحدهم، أنتظر حدوث المعجزة مثلما حدثت معي لثلاثة أيام متتالية، حين عثرت في طريقي إلى البقال على

عشرة قروش ورقية، وفي اليوم التالي عثرت على عشرة قروش في نفس الطريق، ولم أصدق نفسي حين عثرت في اليوم الثالث وفي نفس الطريق على ربع جنيه.

أتجول بين الألعاب والأصوات، أخرج آخر ما معي من نقود وأدخل إلى العربة الكبيرة التي نصعد إليها فوق سلم خشبي صغير وضع عند مؤخرتها، ندخل فنجدها قد أعدت على شكل مسرح، وضعوا بها دكًا صغيرة في صفوف، وأمامها منصة وستارة حمراء قانية ستنتفتح على الأراجوز الذي يرتفع التصفيق لحظة أن يظهر ويقوم بتحيتنا بصوته المميز والمحبب إلى آذاننا، جدران السيارة ملونة بألوان زاهية مبهجة.

يبدأ العرض الذي عادة ما تدور حكايته عن ظلم وقع على الأراجوز وبراعته في الانتقام ممن ظلمه، بطريقة تبعث الضحكات التي تملأ فضاء العربة، ومثلما تتابنا لحظات حزن عند النزول من المراجيح تكون لحظة خروجنا من العربة بعد انتهاء العرض لحظة حزينة، أتجول بين المراجيح، ألمح سيدة بدينة ترتدي ملابس ملونة وتضع الكثير من الأساور الذهبية المقلدة حول معصمها، أمر أمامها وهي جالسة بجوار الأرجوحة، يضع من يريدون الصعود إليها القروش في حجرها، عندما يمتلئ بالقطع المعدنية والورقية تخرج كيسًا من القماش من صدرها وتضع به النقود وتعيده مرة أخرى، من يصعدون إلى المراجيح عادة ما يكونون أكبر سنًا منا، أقف لأشاهدهم وهم يتبارون أيهم سيتمكن من الدوران بالأرجوحة حتى يصبح رأسه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى، وكم مرة سيتمكن كل منهم من الدوران بالأرجوحة أكثر من الآخر.

تظل البهجة مقيمة لعدة أيام، ومثلما جاؤوا بلا موعد، يذهبون أيضًا بلا موعد، نستيقظ فنجد مكانهم خاليًا، مجرد قطعة أرض خالية لا حياة فيها، ينتقلون إلى مكان آخر لا نعرفه ينقلون إليه البهجة التي أخذوها معهم.

ومثلما اختفت الأراضي الفضاء التي كانوا ينصبون ألعابهم فيها اختفوا ولم يعودوا للظهور مرة أخرى، تمر السنوات ومنتظر قدمهم فلا يأتون، ازدادات العمارات ارتفاعًا، أصبحت

البهجة شحيحة، اختنقت بين العمارات المرتفعة والشوارع المزدحمة بالمارة والسيارات وأبواق الباعة الجائلين، علا الضجيج، والحجرات التي كانت مغمورة بالشمس صارت تغرق في العتمة والرطوبة، غاب الضوء والدفء والبهجة وحلت محلها العتمة والبرد والضجر.

مشهد ثابت

«١»

الغرفة باردة، والطعام الموضوع أمامه فوق الطاولة الباردة بارد، وفي الخارج سماء تمطر، وشوارع خالية صامتة، لا يسير كعادته الآن فوق أرصفتها وحيداً يغني.

«٢»

مثل جميع الليالي الماضية أفرغ ما تبقى من طعام العشاء، والذي لم يتناول منه غير القليل، حمل الآنية ووضعها في الثلاجة، حمل الأطباق الفارغة إلى الحوض الذي امتلأ بها، أجل عملية تنظيفها إلى الغد مثلما أجل من قبل غيرها، حمل البراد الموضوع فوق المائدة الصغيرة التي في ركن المطبخ، ملاءه بالماء ووضعها فوق البوتاجاز، أخذ يتأمل أطراف الشعلة الزرقاء التي تداعب حواف البراد الصغير، وقف ينتظر غليان الماء وهو ينتقل بنظره بين السقف الذي تتدلى منه لمبة ذات إضاءة صفراء معلقة في سلك تغير لونه، لاحظ ازدياد الشرخ في الحائط المواجه له، والذي يشبه الشرخ الذي أصاب أيامه، قال إنه في الغد سيتحدث مع صاحب العقار بشأنه، هكذا يقول في كل مرة يلاحظ فيها وجود هذا الشرخ، انتبه على صوت غطاء البراد يرتفع وينخفض بفعل غليان الماء، ارتفع البخار كثيفاً من فوهة البراد، أمسك بقطعة قماش، رفع البراد الساخن وصب الماء على القليل من السكر والشاي، الذي وضعه في الكوب، حمل الشاي، ودخل إلى غرفة نومه، وضعه بجوار سريره، أحس بالبرد، فقام من مكانه، وقبل أن يغلق النافذة نظر إلى الشارع، كان جاره العجوز يعبر الشارع محاولاً تفادي حفر المياه التي صنعها المطر، عدل من وضع اللوحة المعلقة على الجدار، أخذ خطوتين إلى الوراء، ونظر إليها، اقترب منها مرة أخرى وعدل من وضعها، ثم جلس ليشرب الشاي، بعد أن انتهى منه، قام وأحضر منضدة صغيرة وضعها بجوار السرير، وضع فوقها اللاب توب وقام بتشغيله، فتح ملف الأفلام، هو عاشق للسينما لكنه لا يذهب

إليها، يشاهدها فقط من خلال جهازه الذي يعتبره كنزًا يحتوي على أفلام من بلاد عديدة، أفلام قضى ساعات طويلة في البحث عنها وتحميلها، تخير أحد الأفلام وبدأ في تشغيله، سحب الغطاء فوقه، أسند ظهره إلى السرير، وبدأ في المشاهدة.

عندما رآته وقد ذهب في النوم، والغطاء انحسر عنه، خرجت السيدة العجوز التي في الفيلم، والتي تعرفه جيدًا، فقد رآته كثيرًا من قبل يشاهدها في العديد من أفلامها التي يعشقها، وضعت الغطاء فوق جسده، تحركت في الغرفة بهدوء حتى لا توقظه، خرجت إلى الشرفة، جمعت الملابس التي ليومين متتاليين تركها فوق الحبال.

جلست في الصالة ترتبها، وضعتها في الدولاب، عندما همت بالخروج من الغرفة رأت حذاءه بجوار السرير، اقتربت منه، لاحظت أنه حذاء مترب يبدو أنه لم يحمى بتلميعه منذ وقت طويل، توقف عن ذلك منذ أن مات عم أحمد، الرجل العجوز الذي يلمع الأحذية بالمقهى الذي اعتاد الجلوس به وهو في طريقه إلى البيت، عادة ما يطلب كوب شاي بالنعناع الأخضر، تذكره رائحته باللحظة التي كان يفتح فيها باب البيت عند عودته من الخارج، فيجد أمه وقد افترشت الأرض، ووضعت أمامها كومة كبيرة من النعناع الأخضر تقوم بقطف أوراقه فيمتلئ البيت برائحة النعناع، التي تستقبله عند دخوله إلى البيت، فيسحب نفسًا عميقًا قبل أن ينحني ليقبل يد أمه.

هو يحب المشي، يخرج من عمله فيبدأ بالسير في شوارع تعرفه ويعرفها جيدًا، نادرًا ما يغير طريقه المعتاد، يمر في طريقه على بائع الجرائد، تمر عيناه ببطء على الجرائد والمجلات والكتب التي تغطي الرصيف أمام الكشك، يلتقط كتابًا ثم يمد يده بالنقود إلى البائع الذي يجلس داخل الكشك، يضع الكتاب في الشنطة التي يحملها فوق ظهره ويواصل السير، امتلأ البيت بالكتب، الكثير منها لم يقرأه بعد، قالت إنها في المرة المقبلة سترتب له الكتب حتى لا يتعثر بأكوامها المتراسة في أنحاء الشقة الضيقة، مثلما تعثرت هي عندما كانت تبحث في الأدراج عن علبة الورنيش لتقوم بتلميع حذائه، نظرت في ساعتها، أدركت أن زوجها الذي في الفيلم سيعود إلى البيت قريبًا، نظفت الحذاء بسرعة وأعادته إلى مكانه،

تحركت على أطراف أصابعها، رأته مستغرقًا في النوم، طبعت قبلة أم فوق جبينه، أطفأت النور، وعادت لتكمل دورها في المشهد الذي تركته ثابتًا منذ قليل.

مدينة الكوايبس

أغلقت النافذة وجلست على حافة السرير قبل الخلود إلى النوم، أطفأت الأباجورة الموضوععة إلى جوارِي، وبينما كنت أتأمل الظلام الذي ملأ الغرفة، وبعد أن وضعت رأسي على الوسادة، سمعت صوت نههة لا أعرف من أين يأتي، أخذ صوت البكاء يتصاعد حتى صار نحيبًا، شعرت بالخوف، تحيرت، من أين يأتي هذا الصوت، عدت وجلست في سريري، أضأت الأباجورة مرة أخرى، خرجت من السرير، ثم أشعلت سيجارة، أخذت أتجول في غرف الشقة الثلاث بحثًا عن مصدر البكاء، قلت ربما يأتي هذا الصوت من عند جاري الذي يسكن الشقة المجاورة، وضعت أذني على الحائط الذي يفصل بين الشقتين، لم أسمع غير صوت ضحكاته هو وزوجته على مسرحية يشاهدونها، تلك المسرحية السخيفة التي تركتها بعد أن أصابتنني بالملل فقممت للنوم، أخذت أضع أذني على أرضية الشقة، قلت ربما يأتي صوت البكاء من الطابق الأسفل، لم أسمع شيئًا، عدت إلى حجرة النوم، أطفأت الأباجورة وعدت لوضع رأسي فوق الوسادة. عاد صوت البكاء مرة أخرى، تصاعد من نههة خفيفة حتى وصل إلى درجة لم أعد أتحملها، من بين الدموع سمعت من يقول لي:

لماذا تفعل بي ذلك؟

سألت: من أنت وماذا فعلت بك؟

قالت: أنا وسادتك التي تعبت مما تحمله إليها من حزن، كل مساء تأتي فتضع رأسك فوقِي فتتسرب الأحزان من رأسك إليّ، كما أن الكوايبس التي تهاجمك كل ليلة تتسرب أيضا إلى داخلي حتى أصبحت أمتلى بالقطن والكوايبس والألم، أين ذهب ذلك الولد الشقي الذي كان يأتي إليّ متعبًا من لعب الكرة لمدة نصف نهار، فكان بمجرد أن يضع رأسه فوقِي يروح

في نوم هادئ عميق، لا تتخلله إلا الأحلام السعيدة عن أماكن خضراء واسعة، وأطفال يمرحون، وأم تنادي من شباك بعيد ليكف عن اللعب، ويعود إلى دفة البيت ليتناول طعامه.

أين ذهب ذلك الفتى المراهق الرقيق، الذي كان يهمس إليّ كل مساء بما دار بينه وبين حبيبته وهو يمرر كفه فوق يدي ويحتضني بقوة، فتتسرب إليّ مشاعره فأحس بارتعاشة عشق تهز قلبه، ثم يلقي عليّ تحية المساء متخيلاً وجه حبيبته فوق يدي، قبل أن يغلق عينيه متمنياً أن يلقاها في حلم بلا نهاية.

صمتت الوسادة وعادت مرة أخرى للبكاء، شعرت ببعض الدموع تسيل من حافتها إلى الملاءة، قمت ساعتها ولم أستطع النوم، عندما أشرقت الشمس حملت المخدة ووضعتها بالعرض فوق حبال الغسيل لتجف، عليها تتخلص من مخزون الألم والكوابيس الذي بداخلها، رأيت الكوابيس وهي تتطاير من قلبها إلى الشارع بينما كنت أشرب كوب شاي، حملت الوسادة، وضعتها في مكانها على السرير، ارتديت ملابس لي وذهبت إلى العمل، في الليلة التالية قمت بنفس الطقوس التي أقوم بها كل ليلة، وعلى الرغم من أن لا شيء تغير مما يحزنني، وعلى الرغم من أن الكوابيس لم تتوقف عن مهاجمتي فإنني لم أسمع صوت بكاء الوسادة.

عندما كنت أهبط فوق السلم قابلني صديقي الذي يسكن الطابق الأعلى، كان يبدو حزيباً ومطأطئ الرأس، سألته عن أحواله، كانت تبدو عليه علامات التعب ويبدو أنه لم ينام جيداً، حكى لي أنه في الليلة الماضية هاجمه كابوس لم يجعله ينام طوال الليل، سألته عن تفاصيل الكابوس، قال إنه رأى خمسة كلاب سود يطاردونه في مكان مظلم، وهو يجري ولا يرى أمامه شيئاً، ثم وجد نفسه يقف فوق بناية مرتفعة يريد الهبوط منها، لكنه ظل يبحث ولم يجد سلالاً يهبط فوقها، وينتهي الكابوس بأن يلقي نفسه من فوق تلك البناية.

كان هذا هو أشد الكوابيس التي تهاجمني، لا بد أنه انتقل إليه عندما كنت أضع الوسادة فوق الحبال، نسيت أن أقول إنني بينما كنت أراقب الشارع وأشرب كوب الشاي بالأمس، رأيته وهو يعبر الطريق إلى الجانب الآخر.

بعد أشهر قليلة رأيت شرفات البيوت كلها موضوع فوق حبال غسيلها وسادات باهتة اللون،
تنساقط منها كوابيس أعرفها وتعرفني، والناس يسرون في الشارع مطأطي الرؤوس.

حدث في الشتاء الماضي

شعرت بالتعب، فتركت أصدقائي بالمقهى يواصلون جلستهم التي اعتادوا عليها كل مساء، كانت آثار المطر الذي توقف منذ لحظات تظهر فوق الأرصفة، وهواء شديد يحرك الأشجار على جانبي الطريق، كان بائع الجرائد الذي يفتersh الرصيف يللمم بضاعته، ألقى عليه التحية، فردها بابتسامة متعبة، بحثت في جيبتي عن نقود، وجدت بعض العملات المعدنية، كانت تكفي بالكاد لشراء جريدة الغد، ناولني البائع إياها، فوضعتها تحت إبطيني وواصلت السير واضعاً كفي في جيبتي، بعد خطوات أخرجت علبة السجائر، كان بها فقط سيجارة وحيدة، أخرجتها، واعتصرت العلبة الفارغة بكفي ثم قذفتها فوق بركة مياه صغيرة في منتصف الشارع، لم يكن معي ثقب، استوقفت أحد المارة، لم يكن معه هو أيضاً، لكنه ناولني سيجارته التي كان يدخنها، والتي كانت قد اقتربت من نهايتها، فأشعلت سيجارتي منها، وأعدت له سيجارته وشكرته، فرد فقط بهزة من رأسه.

في شرفة عالية كانت سيدة تجمع الملابس المعلقة فوق حبال الغسيل بشكل متعجل.

الشوارع خالية إلا من بعض السيارات، التي تأتي مسرعة، فيصيبني نورها العالي بالزغلة، وتبعثر مياه الأمطار، التي في الشارع، والتي تطول حذائي وأسفل بنطالي.

كانت بي رغبة في السير إلى ما لا نهاية، كنت مستمتعاً بالهواء البارد الذي يشعرنني بالانتعاش، عندما وصلت إلى الميدان الكبير رأيت في منتصفه فتاة لم أر مثيلاً لها في جمالها، كانت ترقص على موسيقى لا أعرف من أين تأتي، كانت ترتدي ملابس شفافة تكشف عن ذراعيها وكتفيها اللذين ازدادا جمالاً تحت ضوء القمر، كانت تدور وتدور وهي لا تراني، ولكن حين رأيتني واقفاً أنظر إليها من ركن بعيد في الميدان توقفت عن الرقص، نظرت إليّ واختفت.

جريت إلى المكان الذي كانت فيه، درت حول التمثال الكبير الذي يتوسط الميدان، لم أعر
عليها، ظللت أنظر في كل الاتجاهات، لكنني لم أعر لها على أثر.

جلست تحت التمثال الكبير منتظرًا عودتها، لكنها لم تظهر، كنت أجيء كل مساء في نفس
موعد ظهورها في تلك الليلة، وأنتظر إلى أن يطلع النهار عليّ، وأنا نائم فوق الرصيف دون
أن تأتي.

وذات مساء، وكان المطر غزيرًا حتى إنه بلل شعري وملابسي، وبعد أن عبرت الجسر الممتد
فوق النهر، وعبرت أشجار الغابة البعيدة لأصل إلى بيتي الذي يقع خارج المدينة، وبعد أن
فتحت الباب إذا بي أجد البيت مضاء بشموع كبيرة موضوعة فوق المنضدة، وبجوارها
زهور من كل لون، كان البيت يسبح في موسيقى لا أعرف مصدرها، تجولت ببصري في
المكان، وفي أحد الأركان وجدتها جالسة أمامي، كانت أكثر جمالاً وبهاءً من المرة السابقة.

نظرت إليّ فسرى الدفء في جسدي، تقدمت إليها، وبعد خطوات كنت أقف أمامها، مدت
إليّ يدها، وفي اللحظة التي مددت فيها يدي إليها ارتطمت ضلفتا الشباك المفتوح بفعل
الهواء القوي، ففتحت
عيني.

كان الفيلم، الذي كنت أشاهده قد انتهى، والستارة تتحرك، ومن خلفها يبدو الضوء الواهن
لبدايات النهار.

مشوار حنين

هذا الطريق أعرفه جيدًا، إنه الطريق إلى المقابر، كنت أسير فيه من قبل وأنا أركب خلف زوج خالتي أو خلف أحد أبناء خالتي فوق الحمار، الآن أقول الطريق إلى المقابر، لكنني في ماض بعيد كنت أطلق عليه اسم الطريق إلى الأرض، لأن زوج خالتي كان يمتلك أرضًا تقع خارج القرية، أرض لا بد لكي تصل إليها أن تعبر شريط السكة الحديد ثم تمر بعد ذلك بالجبانة.

اليوم أسير في هذا الطريق الذي تغيرت ملامحه، فاختفت مساحات خضراء وحلت محلها بيوت كثيرة، تجلس أمامها الآن نسوة متشحات بالسواد، وأطفال صغار يلعبون أمامهن، أسير الآن بجوار أمي التي ارتدت اللون الأسود حزنًا على فراق أختها، وبجوارها تسيير أحب بنات خالتي إلينا، والتي ستلحق بأماها بعد سنوات قليلة، وابنة خالتي الأخرى، وزوج خالتي يسير في الطرف الآخر من الصف الحزين الذي يعبر طرقات القرية.

مر بجوارنا أطفال بملابس المدرسة، تذكرت حوش المدرسة الذي كنا نلعب فيه، حوش بلا أسوار، ذات ظهيرة كنت مع ابن خالتي الأصغر، أجلس مع بعض أصدقائه حين اقترح أحدهم أن نلعب الكرة، كنت أضع قدمي في شيشب من البلاستيك، ولأنني لا أستطيع اللعب به قررت خلعه، حذرني ابن خالتي من حرارة الأرض لكنني لم ألتفت إليه، بعد بضعة خطوات شعرت أنني أسير فوق صلب ساخن أوقدت عليه النار لأيام طوال، أخذت أتقافز حتى وصلت إلى المكان الذي وضعت فيه الشيشب، في المساء انتفخ باطن قدمي بفقاقيع مملوءة بالماء.

كان زوج خالتي يلقي التحية على من يمر به، كنا نسير ببطء يليق بالحزن الذي نشعر به، لسنوات لم نقم بزيارة خالتي، خالتي التي تقيم في مدينة بعيدة في أقصى الصعيد، مدينة

تحتاج إلى ست عشرة ساعة من السفر بالقطار للوصول إليها، يوم أن كان خط السكة الحديد مفردًا، كنا نزل من القطار بأقدام منتفخة من طول الجلوس.

كنت أشعر بالذنب لأننا لم نقم بزيارتها خلال كل تلك السنوات، أخذتنا الحياة فلم نلتفت إلى مرور الزمن هكذا سريعًا، كنا في كل عام نؤجل زيارتها إلى العام التالي.

تذكرتها يوم أن جاءت أول مرة إلى بيت جدتي لأبي في قرية تبعد ثلاث ساعات عن قريتها لتأخذنا إلى بيتها، تذكرت حفاوتها بي وبأخي.

أتذكرها وهي جالسة على طبلية الطعام تعطينا أولاً منابنا قبل أبنائها، خالتي التي كانت تدعو ربها أن تموت وتراب السكة في قدميها، استجاب الله لدعائها، فبعد أن عادت من الخارج وكانت تشتري ما يحتاجه البيت، وضعت حاجياتها وماتت دون مرض، لم تكن تريد أن تمر بتجربة المرض فتتعب معها من حولها، هي التي كان يفيض حنانها على جميع من حولها، كانت تعطي دون كلل.

عبرنا شريط السكة الحديد، مشينا في أرض خالية ثم ظهرت أمامنا المقابر، هذه المقابر ليست كمقابر المدن، ليست ذات مبان وبوابات مغلقة بسلاسل حديدية، ليست ذات سلالم ينزل فوقها اللحد إلى القبر ليضع به من رحل، بل هي مساحة مفتوحة من الأرض يتم الحفر بها ووضع الميت تحت التراب، فقط يتم وضع كومة من التراب، وفوقه فرع شجرة أو جريدة نخل، لا أعرف كيف يعرف الأهل مكان ميتهم فهنا لا شواهد قبور يكتب فوقها اسم المتوفى، هنا لا أفنية مغلقة ترتفع فوقها قطعة رخامية منقوش عليها «مقابر آل...»، هنا الجميع سواء.

لمحت الشجرة الكبيرة في أول الغيط، نبت ظل ابتسامة بداخلي لكنها لم تخرج إلى وجهي، أتذكر اليوم الذي كان يجمع فيه أبناء خالتي محصول الشطة السوداني، التي جاء بتقاويها أبوهم عندما كان يعمل بالسودان، أتذكر الأشجار ذات الأوراق الرفيعة اللامعة،

أتذكر القرون صغيرة الحجم وتحول لونها بمرور الأيام من الأخضر إلى الأحمر القاني.

بعد الظهر بقليل شعر ابن خالتي الأكبر بالتعب، كان العرق يتساقط من وجهه، فجلس ليستريح، نسي أنه كان يجمع الشطة، فمسح وجهه بكلتا يديه، أحس بنار تشتعل فقام يجري إلى القناية التي تمر بالحقل، وأخذ يضع الماء على وجهه وسط ضحكاتنا.

وقفنا أمام أحد القبور الذي قال زوج خالتي إنها ترقد فيه، وقفنا جميعًا ندعو لها ونقرأ الفاتحة، سالت الدموع في صمت فوق خدي، وفي البعيد كان الغيط ينظر إلينا بأشجاره العالية في انتظار خالتي وهي آتية إلى أبنائها بالطعام عند الظهر.

ضوء صامته

لا أريد منك أن تقرأني، فأنا لا أكتب، أنا أتكلم وأريد منك أن تسمعني، لا بل أريد أن تؤكد لي أن ثمة صوتاً يصدر مني، وأنت قد سمعت ما قلت، أعلم أنك قد تستغرب مني هذا الطلب لكنني سأحكي لك.

بدأت الحكاية حين كنت في السنة الثانية من دراستي الثانوية حين بدأت أفكر فيما أرغب أن أكونه في المستقبل، كان الكثيرون ممن حولي يقولون إنني من الممكن أن أصبح مذيعاً، فلي صوت جميل، كنت أنا من تقراً الأخبار في طابور الصباح بداية من السنة الأولى في الدراسة الإعدادية، رشحتني لهذا أستاذ اللغة العربية والمشرف على الإذاعة، كان صوتي يخرج واثقاً ثابتاً، كنت أهبط من المنصة بعد أن أنتهي من قراءة الأخبار وسط نظرات الإعجاب من المدرسين، وألمح بعض الغيرة في أعين بعض التلميذات.

حلمت أن أصبح مذيعاً إذاعة وليس تليفزيون، رغم الشهرة التي تحققها مذيعات التليفزيون كنت أفضل الإذاعة، كنت أتساءل كيف لشخص لا أراه أن يأسرني هكذا بصوته وأدائه، فأظلم أنتظر أن أسمعه مرة أخرى، أنتظر يوم برنامجه، كنت أضع بجوار سريري جهاز راديو أستمع فيه إلى مذياعي ومذيعاتي المفضلات، تعلقت أذني بأصوات العديدين منهم، كنت أحياناً أذهب في النوم والراديو لا يزال مفتوحاً.

ظل هذا الحلم يراودني، قرأت كثيراً، تخرجت في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، عملت مدرسة للغة الإنجليزية بمدرسة قريبة من منزلنا، لكن حلم الإذاعة لم يفارق مخيلتي، كنت أغلق حجرتي على وأجلس أمام المرأة، أضع أمامي ما يشبه الميكروفون وأبدأ في تسجيل نشرات للأخبار، أستمع لما قمت بتسجيله، وأعيد تسجيله مرة أخرى إلى أن أرضى عما سجلته وأحتفظ به، أحياناً كنت أنادي أمي وأبي ليستمعوا إليّ، كنت أرى

علامات الإعجاب على وجهيهما، كانت أمي أول من رأت فيّ أنني من الممكن أن أكون مذيعة، كانت تقوم وهي تدعو لى أن يحقق الله لي ما أتمناه.

تقدمت لاختبارات الإذاعة مرتين، كنت أعرف أنني لن أنجح في عبور الاختبار إلا لو كانت لدي واسطة، هكذا كانت تسير الأمور، ولكنني حتى لا أكون مقصرة في حق حلمي كنت أفعل ما عليّ، في السنة الثالثة لي في العمل بالمدرسة جاءت مدرسة جديدة، بعد لقاءين بيننا سألتني دون مناسبة «ألم تفكري أن تصبحي مذيعة؟» من كثرة ما استحوذ على الحلم ومن كثرة ما تدربت صرت أتكلم كما لو أنني أقدم برنامجًا، كان هذا ملحوظًا جدًا للآخرين، قلت لها إنني تقدمت بالفعل أكثر من مرة للاختبار لكن يبدو أنه بلا واسطة لن أستطيع تحقيق حلمي، قالت إن شقيقها قيادي كبير في الإذاعة، «بالفعل أعرفه»، قلت هذا بعد أن نطقت باسمه، وعدتني أن تتحدث إليه، في اليوم التالي قالت إنها تحدثت إليه وقال إنهم قريبًا سيطلبون مذيعين جديدًا بالإذاعة، تقدمت بطلب وانتظرت موعد الاختبار، قبلها بأيام جاءت لي زميلتي في العمل بخطاب توصية من أخيها، قالت إنه قال إنه لن يكون بمقدوره فعل شيء لي إن لم أكن أمتلك الموهبة.

خلال الفترة بين تقدمي بطلب الالتحاق بالإذاعة ويوم الاختبار عدت مرة أخرى لتدريب نفسي، أخرجت كتابًا مختصرًا في النحو وأعدت مذاكرته رغم تمكني منه، أغلقت عليّ حجرتي لساعات، كنت خلالها أسجل وأعيد التسجيل أكثر من مرة، حلمت بأول مرة ينطلق فيها صوتي بالعبارة التي أسمعها كثيرًا «هنا القاهرة»، فكرت هل يكون اسمي الثاني اسم أبي أم اسم جدي، اخترت أن يكون الاسم الذي سأعرف به هو اسم عائلتي، سيسر أبي لهذا، فهو شديد الافتخار بلقب عائلته، أخذت أردد الاسم أكثر من مرة وكنت أسمعه كأنه آت من جهاز الراديو المغلق الذي أمامي.

قبل الاختبار بيوم ذهبت إلى مصفف الشعر، اشترت ملابس جديدة، كنت فرحة وأنا في الطريق إلى الإذاعة، صعدت إلى مقر الاختبار، كان هناك عدد غير قليل من المتقدمين معي، جلست في انتظار دوري، حين دخلت إلى الاستوديو جلست أمام الميكروفون، أعطوني

خبراً مطبوعاً فوق ورقة صغيرة قالوا إن أمامي دقيقتين لتشكيله ثم البدء في قراءته، قبل مرور الدقيقتين قلت إنني جاهزة، قالوا تفضلي، اعتدلت في جلستي، مسحت بمنديل معطر جبهتي، وحين أردت البدء في القراءة لم يخرج صوتي، لم يلاحظوا ما أنا فيه فكروا «تفضلي» وبعد ثوان «تفضلي» لم أستطع أن أرد عليهم وأقول لهم إن صوتي لا يطاوعني، أخذوا في تهدئتي، جاؤوا لي بكوب ليمون بارد، دخلت للاختبار مرة أخرى، لكن صوتي لم يخرج، أعدت المحاولة لثلاث مرات وفي كل مرة لا يخرج صوتي.

حملت حقيبتي وهبطت سلالم المبنى وأنا أبكي، نظرت خلف ظهري وأنا أعبر الطريق إلى المبنى الذي طالما حلمت أن يكون مقر عملي، وأن يخرج صوتي منه كل صباح ليملأ البيوت والمقاهي.

عدت إلى البيت، لم أتحدث مع أحد، فقط دخلت إلى حجرتي وانفجرت مرة أخرى في البكاء، ليومين وأنا لا أتكلم، تناديني أمي فلا أرد، حملت الراديو ووضعتة أسفل ضلقة الدولاب في مكان لا يمكنني رؤيته منه، أصبحت لا أثق في صوتي أو أن الآخرين يسمعونني، صارت لدي كلمة أكررها كلما تكلمت مع أحد «أتسمعني»، أقولها حتى لو كان من أتحدث إليه في قمة انتباهه وتركيزه مع ما أقول، أكررها في أثناء حديثي أكثر من مرة، يؤكدون لي أنهم يسمعونني، ألحظ الضيق في وجوههم، صرت أميل إلى الصمت، أخشى الحديث مع الآخرين، لا أتكلم إلا إذا اضطررت إلى ذلك، أغلق عليّ باب حجرتي وأجلس أمام المرأة، أرى شفتي تتحركان، أرفع صوتي لأؤكد أنني أتكلم، تأتي أمي أحيانا حين يرتفع صوتي، توارب الباب وهي تمسك بمقبضه وتسالني في جزع:

- هل حدث شيء، مابك؟

- لا، لا شيء.

والآن أود أن أعرف هل سمعتني؟ هل خرج صوت من حجرتي؟ فأنا لست متأكدة من ذلك.

ضد الموت

لم تشرق الشمس بعد، لكن أيقظه صوت الريح وهو يخبط زجاج النافذة ويكاد يفتحها، نظر إليها وهي نائمة إلى جواره، رآها تفتح عينيها في الضوء الواهن الذي يملأ الغرفة قال لها:

- هل تسمعين الريح؟

- لا، لا أسمع شيئاً.

قام من الفراش، وقف بجوار النافذة، رفع الستارة البيضاء الخفيفة التي تغطيها، رأى الريح تحمل أشياء وجثث لبشر وطيور وقطط، أفلت الستارة من يده والتفت إليها، قال:

- يبدو أن الريح تحمل ما تهدم من بيوت وأعمار.

لم ترد، تقلبت في الفراش وهي تتشاءب، عاد للنوم إلى جوارها، أمسكت بيده قالت:

- أنا خائفة.

رفع كفها وقبلها دون أن يقول شيئاً، مد يده إلى الكومودينو، تناول علبة السجائر، أخرج واحدة وأشعلها، ظل يراقب خيط الدخان وهو يتصاعد منها، قال:

- يبدو أن لا أحد بقي من هذه المدينة غيرنا.

قالت مرة أخرى: أنا خائفة.

مال بجذعه، أطفأ السيجارة في المنفضة الموضوعة فوق الكومودينو، نظر إليها واحتضنها بشدة، قال:

- لا تخافي.

نظرت إليها وقالت:

- أشعر بالعطش.

رفع الغطاء عنه، أمسكت بيده، شعر بدفء كفها، ضغط عليه، قال:

- سأتي لك بالماء.

قالت:

- لا، ابق إلى جوارى.

أسند رأسه إلى ظهر السرير، أعاد فرد الغطاء فوق ساقيه، تناول الجريدة، سألها عن تاريخ اليوم، قالت:

- لا أعرف.

قرأ التاريخ المطبوع أعلى الجريدة أكثر من مرة، قال لنفسه:

- لقد مرت ثلاثة أيام منذ أن ضرب الزلزال مدينتنا، إذن لا بد أن اليوم هو التاسع من فبراير، لكن التاريخ الموجود بالجريدة يقول إن اليوم هو الثاني عشر من مارس، تساءل: كيف مر كل هذا الوقت؟ وما الذي أتى بالجريدة إلى جواره.

كان قد رأى مبنى الجريدة ينهار ولا ينجو منه أحد إلا الحارس العجوز الذي تعود أن يلقي عليه التحية كل صباح، قبل أن يصعد السلالم القليلة في طريقه إلى مكتبه، والذي رأى شيئًا يشبهه منذ قليل حين وقف إلى جوار النافذة، رآه يسير ببطء يتلفت حوله وخيل إليه أنه سمع صوت صراخه.

في ذلك اليوم رأى البيوت تنهار على من فيها، وصل إلى بيته وقد غطته الأتربة المتصاعدة من البنايات المتهدمة، كان بيتها هو البيت الوحيد الذي بقي من المدينة.

عاد من تأملاته على أثر ضربة قوية من الريح فوق زجاج النافذة، قرأ العناوين الرئيسية التي تتحدث عن اختفاء مدينة ضربها زلزال وحملت الريح ما تبقى منها، ولا وجود إلا لحبيبين لا سبيل للوصول إليهما.

مثل زجاجة فارغة

اليوم تسلمته، اتصلوا بي فارتديت ملابسني وذهبت، كان موضوعاً في زجاجة شفافة تمتلئ بالفورمالين، حملته بين يدي، ونظرت إليه ثم وضعت الزجاجة في حقيبة بلاستيك، ووضعتها في حقيبة يدي.

سرت في طريقة طويلة، كان صوت خطواتي يغطي على كل الأصوات التي تخرج من حجرات المستشفى.

عدت إلى البيت، لم تكن بي رغبة للطعام، كنت أحس بشيء صلب في معدتي، غيرت ملابسني وجلست في غرفتي، جلست القرفصاء في سريري واضعة خدي بين كفي، تركزت نظراتي على الزجاجة التي أخرجتها من حقيبتي، ووضعتها على المنضدة الصغيرة التي أمام سريري، فتحت التليفزيون ولكن بعد دقائق قليلة عدت فأغلقتة، فلم تكن بي رغبة في متابعة شيء.

الألم الذي بسببه قال لي الطبيب إنني يجب أن أستأصل ذلك الجزء من جسدي لم يتوقف، عادت الطرقات أسفل ظهري، هكذا يبدأ في كل مرة، طرقات خفيفة أسفل الظهر تتصاعد إلى أعلى، ثم تنتقل إلى عظام الصدر تعتصرها كأن يداً من فولاذ تعتصر عظامي، ألم لا يمكنني تحمله إلا بمساعدة هذا المسكن القوي الذي أضعه بجوار السرير، كما أنني أحتفظ بعلبة أخرى في حقيبتي أينما ذهبت، فأنا لا أعرف متى وأين سيداهمني.

فردت ذراعي لأتناول علبة الدواء الموضوعة بجوار السرير، أخذتها بأطراف أصابعي، الآن عليّ أن أقطع المسافة التي أشعر أنها أميال إلى المطبخ لأحضر زجاجة مياه، عندما عدت كان هاتفي المحمول يدق، أخرجته من بين الأشياء الكثيرة بحقيبتي، كان صديقي الذي ليومين لم أهاتفه، والذي كان قد نصحني بعدم إجراء تلك العملية، فعندما قلت له ما قاله الطبيب عن سبب تلك الآلام، قال إن هذا كله هراء ويجب أن تذهبي إلى طبيب آخر، لكنني

لم أستمع لنصيحته، ماذا سيقول الآن إن عرف ما قمت به، هو عصبي وحاد الطباع، لكنني أعرف أن عصبيته هذه من أجل صالحني، لن أحتمل وأنا في حالتي تلك مزيداً من اللوم، وضعت الهاتف بجوار السرير بعد أن أغلقت الصوت ولم أرد عليه.

المسكن الذي تناولته بدأ تأثيره يسري في جسدي، أخذت حدة الألم في التراجع تدريجيًا فذهبت في النوم.

استيقظت قبل الفجر بقليل، قمت من السرير متعبة، شعرت بالجوع، وضعت قطعة جبن ورغيف في صينية بلاستيك، وجلست في الصالة أتناول طعامي ببطء، كان الكرسي الذي اعتادت أمني أن تصلي الفجر فوقه في مكانه المعتاد، رأيتها جالسة فوقه، تبتسم لي عندما تراني خارجة من غرفتي أتشاءب في طريقي إلى المطبخ لأشرب، كنت أحب أن أستمع إليها وهي تدعو الله لي، أجلس حتى تنتهي من الدعاء فأذهب وأقبل يدها، ثم أعود إلى النوم وأنا أشعر بالطمأنينة والأمان.

غداً يا أمني سوف أذهب إليك، سأخرجه من زجاجة الفورمالين وأضعه في قطعة أحتفظ بها في ضلفة الدولاب العليا، قطعة قماش تبقّت من كفنك.

استيقظت مبكرة، ارتديت ملابسني السوداء، فتحت الثلاجة وتجولت نظراتي في أركانها، لم تكن لدى الرغبة في تناول أي طعام، أغلقت الثلاجة، تناولت البراد الكهربائي وملاّته بالماء وأوصلته بالكهرباء، سرحت نظراتي في نقوش السيراميك في الحائط الذي أمامي، كان خيالي يرسم أشكالاً مختلفة، هنا وجه رجل يضحك وهنا طائر بلا أجنحة وهناك سحابات صغيرة، لم أكن أفكر في شيء، كنت فقط أريد أن أبكي، لكن الدموع كانت عصية عليّ، تنبّهت إلى البخار المتصاعد من فوهة البراد، تناولته ووضعت الماء الساخن فوق خليط السكر والشاي، وجلست في عتمة الصالة ارتشفه على مهل.

وضعت الكوب الفارغ على المنضدة وقمت، تناولت اللفافة التي كنت قد أعدتها بعد أن خرجت من الحمام، عطرتها بالعطر الذي كانت أمي تحبه، وضعت اللفافة في حقيبة يدي هي ومفاتيح مقبرة العائلة، المقبرة التي أوصانا والدي أن نشترها، وكان يتصل بنا من البلد الذي يعمل به ليطمئن على تجهيزاتها، المقبرة التي لم يدفن بها، فقد انقطعت أخباره عنا، قالوا لنا في الشركة التي كان يعمل بها، إنهم لا يعلمون عنه شيئاً، قالوا ربما مات في إحدى الغارات.

سرت بالسيارة في الشارع المترب الذي تصطف على جانبيه المقابر المغلقة أبوابها الحديدية بأقفال وسلاسل غليظة، كانت الأتربة تغطي أشجار الفيكس القصيرة المصطفة أمام المقابر، وبعض الكلاب الضامرة تتجول في جماعات صغيرة.

أوقفت السيارة أمام مقبرة العائلة التي ترتفع فوق واجهتها لوحة رخامية عليها اسم أبي، كان اللحد قد سبقني إلى هناك، وجدته جالساً فوق الدكة الرخامية بجوار الباب، قام لاستقبالي وهو يحاول رسم علامات الحزن فوق وجهه، سألتني عن مات فأخرجت له اللفافة البيضاء، وطلبت منه أن يضعها إلى جوار أمي، نظر إليّ في دهشة، لكنه فتح باب القبر في صمت وتناول اللفافة مني، وهبط السلم.

أحفادك يا أمي ها هم نائمون إلى جوارك، أحفادك الذين لن يأتوا إلى الدنيا، لن تكون لي طفلة أحكي لها عنك، أجلسها إلى جوارني نشاهد معاً صوراً قديمة تجمعنا أنا وأنت، فأقص عليها قصة كل صورة.

قال لي الأطباء إن جسدي الضئيل وتجويف بطني أصغر من أن يتحمل وجود الرحم لأنه يضغط على ما حوله، قالوا لا بد من استئصاله، ترددت كثيراً يا أمي قبل أن أوقع على الموافقة بذلك، لكنني وقعت في نهاية الأمر، كان الألم أكثر مما أحتمل وأطيق، انهارت قدرتي على تحمل المزيد.

أنا الآن بلا رحم يا أمي، أشعر كأن بداخلي صحراء كتلك الصحراء الممتدة خلف المقابر،
صحراء لا تنبت شيئاً مهما هطل فوقها من مطر، أنا الآن لا أشعر بأي ألم، اطمئني عليّ يا
أمي.

أغلق اللحد باب القبر، واستأذن في الانصراف، تناولت باقة الورد التي اشتريتها وأنا قادمة
إلى هنا، وضعتها فوق القبر، أغلقت البوابة الحديدية، وبعد أن مشيت خطوتين عدت
لأجذب القفل لتأكد من إغلاقه.

وقبل أن أستقل سيارتي بدأ الطرق أسفل ظهري في العودة من جديد.

عشاء مع صديق قديم

إنني أدعوك لتناول العشاء معي، سأدعك تأكل كما يحلو لك، لن أراقبك كما كان يفعل والدك معك، لن أطلب منك أن تحترس من سقوط بقايا الطعام على الأرض كما كان يخاطبك محذراً، لتفعل ما تشاء يا عزيزي فأنا أشعر أننا صديقين، ربما لأنني عانيت ما عانيت أنت من قبل.

حدث ذات مرة، وقد كنا على مائدة الغداء، أن طلبت من أمي أن تبذل لي قطعة الدجاج التي أعطتها لي، فما كان من أبي إلا أن صفعني وقال لي:

«كُل ما يوضع أمامك»

وعندما بكيت وتركت المائدة، قام خلفي وأمسك برقبتي وأحضرني عنوة مرة أخرى إلى المائدة، فأكلت يومها والدموع تنزل على جدار صدري من الداخل.

وحدث أن كنا على مائدة الإفطار في رمضان، وطلب أبي من أخي الأكبر الذي كان تقريباً في العشرين من عمره أن يحضر شيئاً من المطبخ، فقام أخي لكنه سار ببطء، ربما كان متعباً من أثر الصيام عليه، لكن أبي بدلاً من أن يطلب منه الإسراع قذفه في منتصف ظهره بملعقة كبيرة، تألم أخي وقال لأبي:

«ماذا فعلت لتضربني؟»

فما كان من أبي إلا أن قام وأمسك برقبته حتى كاد يخنقه، وعندما نجح في الإفلات من قبضته أخذ يصرخ بصوت عال، قالوا إنه تعرض لانهييار عصبي من جراء الضغوط التي كنا نحياها في ذلك الوقت، فأنت طوال الوقت في مرمى الإيذاء لفظياً وبدنياً لأنفه الأسباب

وأهونها وبلا سبب أو لأسباب مختلقة، لا تعرف متى وكيف سينفجر هذا العنف ليترك آثاره فوق جسدك وروحك.

اجتمع الجيران حتى امتلأ بيتنا بهم، أخذ جارنا الطيب الذي كان يسكن في الشقة المقابلة أخي لتهدئته.

كنت أقف وسط هذا العدد الكبير مذهولاً غير مدرك لما حدث، وبينما كان الجيران يتناقشون مع أبي فيما حدث، وبينما كان هو يعلو صوته بالشكوى منا جميعاً، كانت يدها تعملان بانتظام في تمزيق بطة كاملة ووضع القطع الواحدة تلو الأخرى في فمه، سيكون هذا الموقف مادة للتندر بين الجيران، خرج أحدهم وهو يقول متعجباً:

«الراجل عمال يزعق وخلص بطة بحالها، أوّمال لو كان مبسوط!»

هل حدث ذلك معك؟ هل وصلت إلى حافة الجنون وأنت لا تفهم ولا تعي ما يحدث، وأنت تبحث عن أسباب منطقية لكل هذا العبث؟

لتجلس هنا يا صديقي، لا تخف، لتتحدث معاً محاولين أن نحطم هذا الجدار الزجاجي الذي يعيش خلفه كلانا.

أنا مثلك أعيش خلف حائط زجاجي، أرى العالم من خلفه، ربما أحتمي به من الاحتكاك بهذا العالم، أنا لا أريد شيئاً من أحد ولا أريد أن ينالني الأذى فاعتصمت بذاتي، لا يعنيني ما يجري في هذا العالم، فقط أريد العيش في سلام، إلى أن أغادر كل هذا الضجيج في هدوء.

هل انتهيت من تناول طعامك؟

إذن لتجلس هنا يا صديقي، سأعد لك كوباً من الشاي، واسمح لي أن أقرأ عليك بعض قصائدي، يمكنك الآن أن تتخلى لبعض الوقت عن خجلك، افرد ذراعيك، لا تضع الواحدة

فوق الأخرى، اجلس على راحتك كما لو كنت برفقة صديق قديم التقيته بعد سنوات من البعاد، تجلسان في هدوء تستعيدان معًا ذكرياتكم المشتركة.

أتعرف متى كان أول لقاء لي بك؟ منذ سنوات في أثناء إحدى جولاتي في شوارع وسط البلد، في أواخر أحد نهارات أيام الخميس التي اعتدت فيها أن أرتدي ملابسني وأستقل الأوتوبيس إلى ميدان العتبة.

لم يكن لي أصدقاء بالجامعة، وأصدقاء المدرسة تفرقوا ولم أعد أعرف عنهم شيئًا، كنت أخرج وحيدًا، أنزل عند نهاية الخط، أبدأ جولتي المعتادة على سور الأزبكية القديم، الذي كان يلتف حول سور الحديقة بداية من المسرح القومي إلى أن ينتهي عند السور الخلفي للمسرح، عند بداية الشارع كان يقف تمثال محمد فريد والشارع ليس به سوى باعة الكتب، تسرح عيناوي في العناوين، أود لو اشتريت كل ما أود شراءه، أسأل عن سعر أحد الكتب، أعرف أن ما في جيبي لن يكفي، أخرج من جولتي بكتاب زهيد الثمن، أحمله وأواصل جولتي في شوارع وسط البلد، أتوقف عند الفرشات الكبيرة لباعة الكتب، أكتفي بقراءة الأسماء، ربما جلست على أحد المقاهي، أشرب الشاي وأقلب في صفحات الكتاب الذي معي، تنتهي جولتي عند ميدان عبد المنعم رياض، حيث أستقل الأوتوبيس وأعود إلى البيت.

كنت أعمل في أثناء الدراسة في مكتب للمحاسبة، أرسلني صاحب المكتب في مهمة عمل بشارع طلعت حرب، وبعد أن أنهيت عملي سرت لأركب الأوتوبيس من موقف العتبة، وكعادتي وقفت عند من صادفتهم في طريقي من باعة الكتب، لمحت وجهك هناك فوق الغلاف، سألت البائع عن ثمن الكتاب فقال: ثلاثة جنيهات، لم يكن معي وقتها إلا ربع جنيه ثمن تذكرة الأوتوبيس، أو أكثر قليلًا، أوصيت البائع ألا يبيعه لأحد حتى أعود إليه بثمنه، اقترضت خمسة جنيهات من جار لنا، وعدت إلى البائع الذي كان قد نسي وباع الكتاب لأحد العابرين، بحثت عنك كثيرًا إلى أن وجدتك في انتظاري عند بائع آخر.

- صديقي العزيز كافكا، هل تريد الرحيل؟

ليكن ما تريد، وداعاً يا صديقي وإلى لقاء قريب، خذ حذرك، فالليلة باردة والظلام كثيف.

1. الغلاف
2. ١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
3. إهداء
4. لست جريجور سامسا
5. بلا صوت
6. فوق مقعد قديم
7. وجع المسك الأبيض
8. ورقة
9. شخص آخر
10. الحادث
11. فراشة بيضاء
12. سرير فارغ
13. تلك الحقيبة السوداء
14. جهاز إنذار
15. تفريغ الذاكرة
16. خبر أخير
17. بائعو البهجة
18. مشهد ثابت
19. مدينة الكوايبس
20. حدث في الشتاء الماضي
21. مشوار حنين
22. ضوضاء صامتة
23. ضد الموت
24. مثل زجاجة فارغة

25. عشاء مع صديق قديم